

مِصْر

وَالقَرْنُ الْوَاحِدُ وَالْعَشْرُونُ

مِصْر
وَالقَرْنُ الْوَاحِدُ وَالْعَشْرُونَ

الطبعة الأولى
١٤١٥ - ١٩٩٤ م

جامعة جنوب الطنجي مستمرة

© دارالشروق

القاهرة ١٦ شارع حماد حسني - عابس . ٣٩٢٩٣٣٣ - ٣٩٢٩٤٥٧٨
ساكن ٣٩٣٤١٢ - (١٢) توكيل SHOROK UN
بيروت - ص.ب. ٨٦٤ - حافظ . ٥٦٧٧٦٣٢ - ٥٦٧٧٦٣٣
ساكن ٣٩٧٥٥٥ - توكيل SHOROK ٢٩٧٩١٣

مُحَمَّد حَسْنِي هِيكِل

مُصْكِر
وَالقَرْنُ الْوَاحِدُ وَالْعِشْرُونُ
ورقة في حوار

دار الشروق

مصر والقرن الواحد والعشرون

ما بين السابع والعشرين والثلاثين من شهر أكتوبر ١٩٩٤ انعقد في مدينة الإسكندرية المؤتمر الثلاثون لجامعة خريجي المعهد القومي للإدارة العليا تحت عنوان «مستقبل التنمية في مصر والدور المنتظر لها في القرن الواحد والعشرين».

وكانت هذه الورقة هي المساهمة التي قدمها الأستاذ محمد حسين هيكل في افتتاح أعمال هذا المؤتمر . وكان أهم ماقصد إليه منها هو ألا تكون مجرد بداية مؤتمر ، وإنما أن تكون إلى جانب ذلك بداية حوار .

إنني واحد من الناس الذين يؤمنون أن تحدي العصر الجديد ، وربما كل عصر هو تحدي الإدارة في جميع المجالات . والحقيقة التي نساحتها أحياناً أن السياسة في صميمها هي علم وفن إدارة موارد المجتمعات ، بما في ذلك الموارد الجغرافية والتاريخية والإنسانية والاقتصادية والثقافية ، وبما يحقق لهذه المجتمعات صحتها ورفاهيتها داخل حدودها ، ومصالحها وأمنها وراء هذه الحدود .

وقد أسلوب ما أحاوله - في هذه الورقة - هو أن أعرض مجموعة تصورات سياسية عامة تتصل بهمومكم وتتوافق مع اهتمامكم باشتراك القرن الواحد والعشرين .

وقد أسجل مسبقاً أن تصورات كل منا تظل متأثرة ب موقفه وموقع نظره ومنهجه في الاجتهاد ، وبالتالي فإنني أقدر سلفاً أن بعض ما أعرضه من تصورات قد يختلف مع تصورات أخرى ، ويطمئنني - في كل الأحوال - أن اختلاف التصورات مفيد في البحث عن الحقيقة .

□ □ □

سوف أبدأ بمدخل تمهدى عن الإدارة السياسية أقول فيه إن إدارة أي سياسة تتطلب ما يلى :

□ أن يكون هناك هدف أو أهداف عامة مرغوب فيها ومطلوب تحقيقها ، وتكون

هذه الرغبة وهذا الطلب موضع إجماع أو أغلبية وطنية مقتنعة به وعلى استعداد للعمل من أجله والبذل في سبيله .

□ أن يكون هذا الهدف واضحاً ومحدداً ، لأنه ليس أخطر في السياسة من الرؤى الغائمة والتحركات التي لا ترى لنفسها مقصدًا تركز بصرها عليه باستمرار ، وقد تحيد عنه بحكم طبيعة الأرض ، لكنها إذ تحيد تلتف إليه من مسلك آخر.

□ أن تكون لهذا الهدف إمكانية فعلية أو مضمونة تسمح بتحقيقه . فليست هناك فائدة من أهداف واضحة ومحددة ، إذا كانت الوسائل والأدوات الضرورية لنواها ليست موجودة ولن تستطع تحملها.

□ أن تتوفر لهذا الهدف مشروعية تجعله مقبولاً ليس فقط من أصحابه ، وإنما من غيرهم . والمشروعية التي أتحدث عنها الآن ليست مشروعية القوانين والأعراف فقط ، وإنما هي أيضاً مشروعية العصر بقيمه وموازيته .

□ أن تتکفل الحياة السياسية بأن تعطى لإدارتها أصلح وأنضج العناصر المهمة لتحمل المسؤولية ، بما يوفر درجة معقولة من الكفاءة لحفظ الهدف حداً مأموناً من فرص النجاح .

□ وأخيراً أن تقدر الحياة السياسية على أن تعطى لقوى الأمة حقها في الرقابة على إدارة العملية السياسية في مجملها ، وأن تكون الرقابة من مدخل الاهتمام والمناقشة والمتابعة أكثر من مدخل التحقيق والتفتيش والعقاب !

□ □ □

أنتقل من هذا المدخل التمهيدي إلى تحفظ سريع يخطر بيالي أن أشير إليه من

باب التحوط والسلامة ، وذلك أتمنى لو نراجع أنفسنا في كثرة الحديث عن القرن الواحد والعشرين ، وخشيتى هي أن يضيع عنوان « القرن الواحد والعشرين » ويلحق بعناوين أخرى سابقة أتلفها التداول بسبب وبغير سبب ، مثل عناوين « السلام » و« الشرعية الدولية » و« النظام资料العامى الجديد » إلى آخره .

إننا بدأنا باستعمال عنوان « السلام » في قضايا السياسة ثم سحبناه بعد ذلك مسافات إلى « مقهى السلام » ، و« مقالة السلام » ، و« بقالة السلام » ، و« جزارة السلام » ، بل و« سجن السلام » !

وأشهد أنكم في هذا المؤتمر - وحسب ما رأيت وقرأت - تستدلون تعبير القرن الواحد والعشرين استدعاء لائقاً ومسئولاً . لكن تحسبي هو من أسلوب شاع في حياتنا العامة بالنسبة للأفكار ، كما شاع في حياتنا اليومية من قبل بالنسبة للسلع ، وهو أسلوب المخلفات والمعبات والملعبات والمحفوظات ، تستهلك بسرعة ، وتستهلك طوال الوقت ، وتستهلك في كل مكان من المحلات إلى الشوارع إلى البيوت على طريقة « اخذ معك » ("Take Away") .

وأصل بعد ذلك إلى مجموعة من الملاحظات أريد الإشارة لها فيها يتعلق بأى محاولة هنا ، أو في أى مكان آخر ، لاستدعاء عنوان القرن الواحد والعشرين وما يندرج تحته أو يتصل به .

وأعرض هذه المجموعة من الملاحظات على النحو التالي :

١ - إن إيقاع الزمن الذى نعيش فيه الآن داع يسبق غيره من الدواعى التى تفرض الخدر في أى تناول لقرن بأكمله . ولقد كان ذلك صعباً في كل الأزمنة ، وهو بالتأكيد أشد صعوبة في القرن المقبل حيث السباق على أشهده في العلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها ، وفي الأفكار وانتشارها ، وفي العالم واتصالها .

والأجدى أن يكون النظر إلى حقبة أو حقبتين .. ربع قرن على أكثر تقدير ، لأن

أكثر من ذلك يتخطى المعقول ، وقد يصبح استسلاماً لأنواع من الوهم تعنى
العقل من مسؤوليته حين تسلبه مفاتيح الممكن وتلهيه بمخالفات المستحيل !

وإذا نظرنا إلى مجال واحد ، وهو مجال المواصلات والاتصالات وما طرأ عليه في
سنوات أخيرة معدودات ، لرأينا صورة باهرة لحركة التغيير . فإذا أضفنا إليها
معدلات التراكم وتأثيراتها المتبدلة في كل النواحي - لأدركنا صعوبة استطلاع
المستقبل بعد حدود معينة بقدر كافٍ من الجد والثقة وشبه اليقين .

٢ - إن الفواصل الرئيسية في الزمن - الانتقال من قرن إلى قرن فضلاً عن الانتقال
من ألفية ثانية في التاريخ الميلادي إلى ألفية ثلاثة - هي مناسبات تستحق
الحفاوة والاحتفال والفرح ، ثم إنها مفعمة بالدلائل الرمزية ، لكن هناك
محظوظاً يجب أن نتوقعه وهو أن يتصور أحد منا أنه ينطلق بصاروخ من كوكب
إلى كوكب . والذي يجب أن نستوعبه بعمق هو أن الزمن مسار تشتد الحركة
عليه أو تهدأ ، يتسارع إيقاعه أو يبطئ ، لكنه تيار متصل متدقق ، وهو غير
قابل بالطبيعة لأن ينقطع .

وإذا تصورنا أننا أمام جيد لا علاقته له البتة بما سبقه ، إذن فإننا نحتاج إلى
مراجعة قوانين الحياة ذاتها .

إن تصور عالم جديد ينشأ في استقلال كامل عنها قبله وهم مخالف لحقائق
الأشياء حتى بالنسبة لأعظم التغيرات الكبرى في تاريخ البشرية وهي
الأديان . فالمبادئ الأساسية في أديان التوحيد الثلاثة الكبرى لم تتغير كثيراً في
جوهرها ولم تتغير كثيراً في قصصها . بل إنه في الدين الواحد قصدت الحكمة
الإلهية حتى في الأركان والشعائر ألا ينقطع الحاضر عن الماضي ، ومن ذلك
مثلاً أن شهر رمضان كان صياماً قبل الإسلام ، كما أن الحجج إلى البيت الحرام
كان مألفاً قبل الرسالة النبوية سواء بالطواف أو بالسعى ، وهذه عزة

لوجبات الاستمرار جنبا إلى جنب مع موجبات التغيير ، مع أن المصدر قدسي وهو قادر على أن يعيد الخلق كله من جديد .

وربما كان علينا أن نتذكر أن أكبر المؤثرين على القرن الواحد والعشرين في مجالات الطبيعة والأحياء والقوة - وهى المجالات المعرضة لأوسع تغيرات محتملة - رجال ولدوا في القرن التاسع عشر . أشير إلى رجال من طراز « ألبرت إينشتين » و« تشارلز داروين » و« إبراهام لنكولن » - أى أننى أعنى « نظرية النسبية » و« نظرية النشوء والارتقاء » ، وأعنى - أيضا - الولايات المتحدة الأمريكية كما نعرفها الآن بقوتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

٣ - تتصل بذلك مباشرة قضية هامة لا يجوز إغفالها ، وهى أن هناك عوامل حاكمة في التطور الإنسانى منها تغيرت العصور ومهمها بلغ بعد وعمق تقلباتها ، وفي ظنى أن العوامل الحاكمة الرئيسية ثلاثة هي : المكان والزمان والبشر .

وحيث أتحدث عن المكان فحديشى بصفة عامة عن الجغرافيا ، أى عن الأرض والموقع والمناخ والموارد .

وحيث أتحدث عن الزمان فحديشى بصفة عامة عن التاريخ ، أى عن تاريخ الشعوب والحضارات والصراعات والأفكار والعلوم .

وحيث أتحدث عن البشر فحديشى بصفة عامة عن نشأة المجتمعات وعلاقتها في الداخل ومع الآخرين ، بما في ذلك عوامل القوة والثروة وتبادل المنافع ، والنمو والتراكم والمنافسة .

ولو أردنا مثلا بارزاً لتأثير هذه العوامل الحاكمة في السابق واللاحق من حياة الشعوب فإن الولايات المتحدة الأمريكية مثال حى لظاهرة الاستمرار والتغيير ، خصوصا أنها القوة الأعظم في هذه اللحظة عند تداخل فواصل الزمان من قرن

إلى قرن ومن ألفية إلى ألفية .

سوف يلفت نظرنا أننا أمام مجتمع مليء بروح المخاطرة ، جاهز لاستعمال القوة ، عمل في استعمالها لتحقيق مصلحته بغير رادع من أي نوع ، ثم هو مجتمع غنى وافر الغنى ، وقد مكنته ذلك الغنى من أن يسبق ويتفوق .

وإذا تساءلنا ما إذا كانت هذه الخصائص صناعة معجزات ، أو أنها صناعة جغرافية وتاريخ ، لوجدنا أن تلك الأخيرة هي الحقيقة ، وبمقدورنا أن نفحص خلاياها وأن نعثر فيها على خصائصها البرجعة بفعل التجربة الأمريكية و بداياتها .

مجتمع مغامرين ركبوا المحيط ، قاصدين إلى وطن جديد . وكان عليهم أن يأخذوا الأرض وأن يأخذوها بالقوة دون أن يتوقفوا طويلا أمام الحقوق الطبيعية أو القانونية ، وكان عليهم أن يروضوا ويهزروا بهذه الأرض وسكنها بأى شكل ، وقد روّضوا وقهروا قارة بأكملها من أقوى قارات الدنيا ، ثم إنهم بعد أن رسخوا أقدامهم حيث وصلوا عادوا إلى عالمهم القديم لتنمية الشروذ وبسط النفوذ .

هكذا ولدت التجربة الأمريكية وعاشت وما زالت تعيش حتى الآن ، وهذا هو منطق الأشياء ، أو قوة الأشياء إذا أردتم .

وإذا أخذنا مثلا آخر ، ولتكن ألمانيا ، فسوف نجد أن ألمانيا التي هي بالجغرافيا قلب أوروبا ، لم تتوقف يوما عن مساعها إلى أن تكون القلب بالسياسة ، وبال التاريخ الذي هو تراكم وتركيز السياسة .

إن ألمانيا باعتبارها قلب أوروبا كانت مشروع « بسمارك » - حتى بالحرب مع فرنسا وهزمتها في حرب ١٨٧٠ - وكانت تلك محاولة الرايخ الأول .

ومشروع « بسمارك » كان هو نفسه مشروع القيصر الألماني « غليوم » - حتى بالحرب ضد بريطانيا وفرنسا - وكانت تلك محاولة الرايخ الثاني .

ومشروع « غليوم » كان هو نفسه مشروع « هتلر » - حتى بالحرب ضد بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وروسيا - وكانت تلك محاولة الرايخ الثالث .

ونفس المشروع - ألمانيا - قلب أوروبا - هو مشروع « كول » .

تبقى الأهداف ثابتة بحكم الجغرافيا والتاريخ ، ويتعلم البشر من درس عصرهم ، ويتجدد المشروع باستمرار وإن كان بوسائل مختلفة .

وما حاوله « بسمارك » بقوة المدفع هو نفسه ما يحاوله « كول » بقوة المارك .

أى أنها وسائل جديدة إلى نفس الغايات المطلوبة .

وربما أشير بسرعة إلى مثال قريب ، وهذا المثال هو حالة مصر التي لا تستطيع أن تفلت من قوة الضغط والخذب الآسيوية ، المتمثلة في الأمن والدين واللغة وكلها في الشرق أو منه ، ثم إنها لا تستطيع أن تفلت من الرياط الأفريقي بالدور الذي يلعبه النيل في حياتها ، وهو واصل إليها من الجنوب ، ثم إن وجودها على شاطئ البحر الأبيض هاجس يشغلها باستمرار من الشمال والغرب !

هذه نماذج ثلاثة :

أولها : عن الولايات المتحدة - خاص بالتكوين الأول وامتداداته في الحاضر .

وثانيها : عن ألمانيا - وهو خاص بالحركة مرحلة بعد مرحلة .

وثالثها : عن مصر - وهو خاص بالرواسى التى لا يمكن التخلى عنها أو الإفلات منها .

ويبقى جوهر التطور باستمرار كامنا في تلك العلاقة الحية والخصبة والمبدعة التي يجب أن تكون بين الثابت والمتحير .

٤ - إن بعض الاجتهادات تقول إن التكنولوجيا أسقطت الجغرافيا وسوف تسقطها أكثر في القرن الواحد والعشرين لأنها ألغت المسافات . وبالتأكيد فإن المسافات تلاشت ، لكن إلغاء المسافات لا يعني بالضرورة إلغاء الحقائق ، فنحن قد نسافر من نيويورك إلى « تبكتو » في ساعات بدلاً من أسابيع وشهور ، لكننا حين نغادر نيويورك نتركها وهي نيويورك ، وحين نصل إلى « تبكتو » نصلها وهي « تبكتو » .

أى أن الحقائق لها قدرة على البقاء تتعدي قدرة التكنولوجيا على تغيير الوسائل . والوسائل بالتأكيد لها تأثير ، لكن من واجبنا أن ندرك أن الحقائق التاريخية إنسانية ، وبالتالي فإنها شأن كل ما هو إنساني قابلة للتطور والارتقاء ، لكن تلك عملية باللغة التعقيد تتصل بأحوال المجتمعات وثقافاتها وقدراتها ونوعية الحياة السياسية فيها ، وغير ذلك كثير .

إن تلاشي المسافات جعل بعض الاجتهادات تتحدث بغير تحفظ عن كونية جديدة وعن قرية عالمية واحدة ، وإلى حد ما فإن ذلك صحيح لكن بعض التحفظ مطلوب . فالكرة الأرضية كوكب واحد - وليس كونا - وهو كوكب تسرى عليه نفس قوانين الطبيعة ، وهو كوكب حافل بأسباب الاختلاف والتباين والتناقض في تضاريسه ومناخه وحتى ألوان ناسه ، ومن مزالق التعميم بلا تحفظ في مقولات الكونية الجديدة والقرية العالمية الواحدة أن نتصور وهما أن الكل تساوى مع الكل ، وأن قياس سرعة الوسائل ينسحب على الحقائق بينما هما مسألتان مختلفتان .

عالمية الوسائل مشاع . ولكن عالمية الحقائق مخصصة .

بل لعلنا نقول إن عالمية الوسائل تحدث قريباً شديداً ، وخصوصية الحقائق تحدث بعدها شديداً ، وذلك تناقض خطر .

٥ - تلحق بذلك مقوله تحتاج هى الأخرى إلى شيء من الحذر، وتلك هى مقوله سقوط الأيديولوجيا أمام علو التكنولوجيا ، وأن تلك أهم سمات القرن الواحد والعشرين . وينسى القائلون بذلك المعنى الأصيل للأيديولوجيا باعتبارها رؤية معرفية للكون وللدنيا وللمجتمع وللإنسان ، تبلور في صياغات تعطى نفسها مواقف ووسائل تحسبها محققة لطموحاتها في شتى مجالات الحياة .

وأغلب الظن أن القائلين بسقوط الأيديولوجيا يقصدون سقوط أيدلوجيا معينة أعطتها الماركسية وتبنتها الأحزاب الشيوعية وبخاصة في الاتحاد السوفيتي السابق .

والأقرب إلى الواقع أن ما كان في الاتحاد السوفيتي لم يكن مجرد أيدلوجيا Ideology ولكنه تحول من أيدلوجيا إلى «Dogma» .

والفارق بين الاثنين كبير ، فال الأولى رؤية نظرية فكرية ، والثانية عقيدة أعطت لنفسها سلطاناً احتكار الحقيقة وسلطة قمع ما عدتها .

وهذا فارق يستوجب ألا يكون الكلام جزافاً عن سقوط الأيديولوجيات .

إن البشرية باستمرار في حاجة إلى صياغة رؤاها وموافقتها . والشيوعية صياغة ضمن صياغات ، وكذلك الرأسمالية . والصياغات وسائل لغایات إنسانية أهمها غایة التقدم ، وغاية الحرية ، وغاية العدل ، وغاية المساواة .

وقد يكون مفيداً لنا أن نتابع مناقشات أيدلوجية خصبة تجرى في أوروبا مثلاً، وبينها ما يحاوله حزب العمال البريطاني ، وهو الآن يتقدم في كل استطلاعات

الرأي العام على حزب المحافظين . إن الرئيس الجديد لهذا الحزب « تونى بلير » - وهو في الغالب رئيس الحكومة المقرب في بريطانيا - يتقدم إلى الناخبين بما يسميه « اشتراكية إنسانية » ، وقد اقترح على مؤتمر الحزب في أول هذا الشهر (أكتوبر ١٩٩٤) إلغاء المادة الرابعة من دستوره ، وهى الخاصة بسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج ، لأن الزمن تجاوزها ، لكنه لم يفعل ذلك ويسكت ، وإنما تقدم بعده بديل مختلف لتحقيق غاية التقدم وغاية الحرية وغاية العدل وغاية المساواة ، يضع على مسئولية الدولة قضايا أساسية ، أهمها : كفالة حق العمل ، وكفالة حق التعليم والتدريب وكفالة حق الصحة . (ولم تتوافقأغلبية في مؤتمر الحزب على إسقاط المادة الرابعة ، إلا بعد أن يقوم « تونى بلير » بدراسة أوسع وأعمق للبديل الذى يقترحه ، ويزيده تفصيلا وجلاء) .

وهكذا فإن القرن الواحد والعشرين ليس عصر سقوط الأيديولوجيات ، وإنما قد يكون عصر تحديدتها بصياغات أكثر قدرة ومرنة على تحقيق طموحات إنسانية عليا توجه إليها البشر من قبل تعداد القرون ، وسوف تظل وجهتهم إلى آخر الزمن .

□ □ □

نصل الآن إلى القرن الواحد والعشرين نفسه .

لتتفق في البداية على أننا أمام متغيرات هائلة لا ترتبط بالانتقال من قرن إلى قرن ، أو من ألفية ثانية إلى ألفية ثالثة . وربما أن مصادفة اللقاء بين التغيير والتوقيت هي التي أنشأت ذلك الاهتمام الزائد بالقرن وبالألفية .

والحقيقة أن ما نشهده أو ما نوشك أن نشهده ليس نهاية وبداية قرن أو ألفية قرون فحسب ، وإنما هو خاتمة وافتتاحية عصر في مسيرة التاريخ .

وربما ترون أن عصور التطور التاريخي تصنعها حفائق التفوق والقوة ، وإذا كان ذلك ، فقد يجوز أن نقول إن العصر الذي استوفى مرحلته الآن هو ذلك العصر الذي بدأت مقدماته في منتصف الألفية الثانية بتطويع وتنطوير قوة البارود في أوروبا ، مما أدى لخروجها الكبير إلى حركة الكشوف البحرية ، ثم حركة الاستعمار، ثم حركة التراكمات المالية التي مهدت للتنوير، ثم للنهضة ثم للثورة الصناعية التي أقامت أول نظام عالمي قادته بريطانيا بأساطيلها ، ثم ورثته الولايات المتحدة بسلاحها النووي . إن ذلك النظام العالمي الأول شهد وقائع كبيرة من تمكن الرأسمالية إلى تحدي الشيوعية ، وشهد ظواهر خطيرة من بروز النازية إلى جنوح العنصرية ، وشهد صراعات هائلة تمثلت في ثلاثة حروب عالمية، اثنان ساختنان وواحدة باردة ، وربما أن هذه الحروب كشفت جهوداً جباراً أدت إلى اختراق هائل وصل إلى فتح الآفاق أمام العصر الإلكتروني ، وكان هذا الفتح - خصوصاً في مجالات الانتاج والاستهلاك والمعلومات - هو الذي سار بالانكسار العقائدي والإمبراطوري للاتحاد السوفيتي ، وكانت عملية الانكسار هذه هي التي أنهت آخر المواجهات العظمى في العصر السابق ، وهي مواجهة الحرب الباردة .

وليس من المبالغة استعارة ظواهر الطبيعة بالتطبيق على السياسة من حيث القول بأن ذوبان ثلوج الحرب الباردة أحدث فيضاناً تحول إلى طوفان عندما انكسر آخر الحواجز والمتاريس والمحصون التي كانت قائمة على خطوط المواجهات العقائدية والثقافية والعسكرية للنظام العالمي السابق .

إن يوم 9 نوفمبر ١٩٨٩ - يوم سقوط حائط برلين - سوف يدخل التاريخ باعتباره اليوم الذي بدأ فيه تدفق واندفاع وهدير الطوفان الناشئ عن ذوبان جليد الحرب الباردة . وقد جرف هذا الطوفان أمامه حطاماً وركاماً كثيراً من الماضي ، وأهم من ذلك أنه غطى الحاضر بسيوله الكثيفة ، وأخفى واقع مجرى ويجرى تحته .. فلم يعد واضحاً ما الذي انكسر ؟ وما الذي تهدم ؟ وما الذي تكوم أو

تكون؟ وما الذي غرق في طين القاع؟ ثم ما الذي ظل عائماً مع الموج حتى وإن لم يظهر على سطحه؟

وكان هناك سؤالان هما في الحقيقة سؤال واحد له وجهان:

أو هما: كيف النجاة من الطوفان؟ أو بتصوير تارنخي: من الذي يقوم بدور سيدنا نوح يحمل الأجناس في فلكه وينجو بها حتى ينحصر الماء ويغيب؟

وثانيهما: ما هو الشكل العام الذي سوف يظهر لتضاريس هذا الكوكب بعد أن ينحصر الماء ويغيب؟ وكيف تسير الحياة على هذه التضاريس الجديدة؟ وفي أي اتجاه وعلى أي نحو؟

وقد كان هناك خوف شديد وفوضى عارمة. ولعل هذه الفوضى العارمة بلغت مداها - فيما يتعلق بمنطقةنا - أثناء حرب الخليج الأولى والثانية ، وكان محتملاً قبل أيام - ولايزال محتملاً - أن تكون هناك ثالثة!

وأثناء الخوف والفوضى ارتفعت أصوات ودارت مناقشات وظهرت اجتهادات كلها تحاول البحث عن «نوح» الجديد وفلكه المنجي من الطوفان ، وعن مشهد ما بعد الطوفان ، وما ينتظركم الناجين بعده.

في هذه الأجواء العاصفة ظهرت تفسيرات ومقولات ونظريات تبحث عن نوح وفلكه المنجي من الغرق!

١ - كانت هناك مقوله ونظرية أنه ميلاد نظام عالمي جديد سوف يكون هو الأمر الناهي في القرن الواحد والعشرين ، وكانت تلك مقوله ونظرية الرئيس الأمريكي السابق «جورج بوش» ووزير خارجيته «جيمس بيكر» ومن حوطها من الخبراء والمستشارين .

لكن هذه المقوله والنظرية لم تثبتا طويلا ، فالفكرة ليست جديدة ، وتعبر «النظام العالمي الجديد» سبق استعماله عدة مرات . استعمله «ونستون تشرشل» في أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو يطالب بسيادة «أنجلوسaxonية» تفرض مشيئة المتصررين في الحرب بحق النصر على بقية الدنيا .

ثم إن الرئيس الأمريكي «فرانكلين روزفلت» استعمل نفس التعبير سنة ١٩٤١ وهو يمهد لدخول الولايات المتحدة إلى ميادين الحرب العالمية الثانية ، ويبشر الدنيا بجنة بعد الحرب متحررة من الفقر والجهل والمرض والظلم السياسي والاجتماعي .

ثم عاد التعبير مرة أخرى يتعدد على لسان «هنري كيسنجر» وهو يهندس لسياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتي ، عندما كان مستشاراً للأمن القومي مع «ريتشارد نيكسون» ، ثم حينما أصبح وزيراً خارجيته .

ولم تكن المشكلة مشكلة جدة أو قدم التعبير فحسب ، وإنما كانت هناك الحقيقة الموضوعية في أن النظم العالمية لا تقوم وتزول بمشيئة أحد ، ولا بمناسبة حادثة ، ولا بين ليلة وضحاها . فالنظام العالمي الأول الذي أقامته الثورة الصناعية واستقرت إدارته في يد بريطانيا أكثر من قرن ، وانتقلت بعده إلى الولايات المتحدة لنصف قرن ،أخذ ضروراته في النمو والنجاح ، ثم إنه ترافق مع أسباب حقيقية في وسائل الانتاج وفي أدوات استعمال القوة ، إلى آخره .

والشاهد أن مقوله ونظرية «النظام العالمي الجديد» تجمدتا حتى على ألسنة أصحابها . ويلفت النظر أن «جورج بوش» نفسه استعمل تعبير «النظام العالمي الجديد» ٢٧٤ مرة خلال خطاباته الرسمية وأحاديثه العامة في الفترة ما بين أغسطس ١٩٩٠ «غزو العراق للكويت» - حتى مارس ١٩٩١ «إخراج

العراق من الكويت» - لكنه من مارس سنة ١٩٩١ وحتى انتهاء رئاسته في يناير ١٩٩٢ لم يذكر هذا التعبير غير ثلاث مرات !

ولم تعش مقوله ونظريه «النظام العالمي الجديد» لكي تخطوا إلى القرن الواحد والعشرين .

٢ - ثم كان أن ظهرت مقوله ونظريه تلحقان بالمقوله والنظريه الأوليين وتحاولان أن تستدعاها وتستدعا ثغراتها ، ومؤداهما «إنه نظام عالمي جديد لكن له مدیراً واحداً هو الولايات المتحدة الأمريكية» . ولم تلبث هذه المقوله والنظريه أن عهاوتا بدورهما ، فليس هناك نظام عالمي بالمعنى الذي يستحق هذا الوصف يقوم على دولة واحدة في عصر توزعت فيه مراكز القوة التكنولوجية والاقتصادية ومن ثم العسكرية .

وإذا كانت بريطانيا قد تحكنت من إدارة النظام العالمي السابق للمدة الأكبر من عمره «قراية قرن» فقد كان ذلك ممكناً بفضل التفوق البحري للأسطول البريطاني وظروف التجارة الدولية التي أعطت للجنيه الاسترليني سيادة مالية شبه كاملة ، كما أن وسائل العصر ، وأهمها وسائل المواصلات والاتصالات كانت محدودة ، ومع ذلك فإن الهيمنة البريطانية تعرضت لتحديات من فرنسا وألمانيا وروسيا واليابان ، وقد أدت هذه التحديات إلى حربين عالميتين . والآن فإن الحروب العالمية مستحيلة بسبب طبائع الأسلحة النووية .

يتبقى أن الولايات المتحدة دولة لها مصالح ، والعالم الآن أوسع من مصالحها ، ولو أدارت شئونه لكان محتوا عليها أن تهمل أجزاء منه ، وأن تتحيز في أجزاء أخرى بها يشير ضدها ما لا تستطيع - وقد لا ترغب - في السيطرة عليه .

والحقيقة أن القادة الأمريكية ، أو بتعبير آخر السلام الأمريكي Pax Americana، تبدلت حدوده في حرب الخليج الثانية .

ولعلنا نتذكر أيضاً أن هذه الحرب لم تكن ممكنته، لو لا أنها كانت حرباً شنتها الصواريخ من حاملات الطائرات الواقفة من بعيد لأن الشعب الأمريكي ليس مستعداً لخسائر في الأرواح . ثم إنه أيضاً ليس مستعداً لخسائر في الأموال ، وقد كانت حرب الخليج الثانية في جزء منها عملية رابحة . تكلفت ٣٦ بليون دولار ، وحصلت الولايات المتحدة فيها على ٦٤ بليون دولار ، بهامش ربح يقارب الثلاثين بليون دولار .

ثم انتهت حكاية هذا السلام الأمريكي في الصومال حين أقبلت الولايات المتحدة على مادعته مهمة إنقاذ إنسانية تحت عنوان إعادة الأمل Restore Hope ، ثم لم تمض غير شهور حتى السحبة كما دخلت في ساتر الظلام تاركة الصومال وأهله بعد كمين قتل فيه ثمانية عشر جندياً أمريكيّاً ، وهاج الرأى العام الأمريكي وماج .

وحيث لحقت مشكلة البوسنة بمشكلة الصومال ، تبين أن السلام الأمريكي محدود مهماً كان مدى صواريخته غير محدود ، وبالتالي فإن القرن الواحد والعشرين يصعب أن يكون له ضابط واحد حتى وإن كان أمريكيّاً ، وحتى إذا كان مركز قيادته هو البيت الأبيض في واشنطن !

ولقد كانت الخاتمة التي تستحق الاعتبار والعبرة هي ماحدث أخيراً حين أقدم العراق على حشد جزء من قواته على حدود الكويت .

إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تبدأ في حشد المضاد إلا بعد الاتفاق على تسليم حساب التكاليف .

خمسة مليون دولار في الأيام الخمسة الأولى لحشد الأساطيل والطائرات والجنود ، ثم خمسون مليون دولار كل يوم بعد ذلك ، مع إضافة عشرين مليوناً أخرى يومياً لنفقات القوات التي وضعت في حالة تأهب ، وإن لم تنتقل بعد

إلى منطقة الحشد في الخليج . والمطالب بالدفع بالطبع هما السعودية والكويت أولاً .

ومن الغريب أن بعض التقديرات الموثوقة تشير إلى أن القوات الأمريكية التي نزلت في الكويت لم تزد في ذروة الحشد عن مجموعة لواء ، أى في حدود ثلاثة آلاف جندي ، بينما كانت البيانات الرسمية الأمريكية تعلن أن العدد في الكويت ثلاثون ألفاً . ويظهر أن هذه البيانات أضافت إلى أرقامها أعداد القوات الموجودة على السفن العاملة من الأصل في الخليج ، إلى جانب قوات موجودة في قواعد مختلفة من دولة .

ولا يعرف التاريخ من قبل نظاماً لإدارة العالم باليومية !

ولا يعرف التاريخ من قبل أيضاً نظاماً عالمياً يمارس مهامه على طريقة مقاول توريد الأنفار ، ويعالج في عددهم أيضاً !

فوق ذلك فإن الحشد الأمريكي على وشك أن يتفرق دون إطلاق نار ، لأن فرنسا كان لها رأي مختلف ، كما أن روسيا انفردت بموقف يمتحن إلى الاستقلال ، ثم إن الصين أبدت امتعاضها من كل التصرفات والأراء والمواقف .

ولم يستطع المدير الأمريكي أن يدير الكرة الأرضية وأن ينفرد بها وحده !

٣ - وفي بعض الأوقات راجت مقوله ونظريه ثلاثة موداهما « إن النظام العالمي الجديد هو في الواقع نظام الأمم المتحدة متطرداً ، يملك إرادة مستقلة لها القدرة على فرض ما يسمى بالشرعية الدولية » ، وكان مثل ذلك ضرورة من خداع النفس ، فال الأمم المتحدة شأنها شأن أي تنظيم دولي لا قيمة له إلا بمقدار ما يتنازل له الأعضاء الكبار فيه عن جزء من سيادتهم ، وعن جزء من قوتهم لتكون من ذلك مشيئة لها قدرة على فرض الحقائق متسقة مع مقتضيات

العدل الذى يجب أن يكون أساسا للشرعية الدولية .

ولم يكن ذلك قائما ولا كان ممكنا ، فالدول مصالح وليس مؤسسات خيرية ، أو قانونية ، ثم إن المصالح متضاربة وكذلك مطالبهما ، وهذا يحول دون سلطة إرادة واحدة ، بل هو موجب للشلل أكثر مما هو مهد للفعل . ولقد امتد الشلل حتى إلى خزينة الأمم المتحدة ، ولم يعد هناك شاغل لأمينها العام غير أن يدبر مرتبات موظفيها من شهر إلى شهر . ويصعب أن يكون ذلك حال مؤسسة يرجى لها أن تكون حاكما ، أو حكما في شئون العالم !

٤ - بالتسوازى مع ذلك شاعت وذاعت مقولات ونظريات جاءت من عوالم الفكر قبل عوالم السياسة . فقد نادى أستاذ علوم سياسية مثل « فوكوياما » بأنها « نهاية التاريخ » لأن البشرية توصلت إلى مثاها النهائى وهو الديمocrاطية الليبرالية .

ولم تكن مقوله ونظرية « نهاية التاريخ » بدورهما جديدين ، فمن قبل همس بهما « هيجل » متصورا أن الثورة الفرنسية أعطت للبشر مثاهم المرتجى ، ثم صاح بهما « ماركس » و«لينين» من بعده متصورين أن ديككتاتورية البروليتاريا هي تلك النهاية للتاريخ من حيث إنها خاتمة صراع الطبقات وصانعة الفردوس على الأرض لكل البشر .

وانتهى « فوكوياما » نفسه - وقد رأى ما جرى على اتساع قارات الدنيا تقريبا - إلى أن التاريخ ما زال يجري ، وأن نهايةه أبعد من القرن الواحد والعشرين . . . هذا إذا كانت للتاريخ من الأساس نهاية في أوضاع تشتد فيها تناقضات ولا تقل !

٥ - وأخيراً خرج أستاذ كبير مثل « هنتنجهتون » بمقوله ونظرية أنه « صراع الحضارات » وأنه المؤثر الأكبر على القرن الواحد والعشرين .

ولم يقف كثيرون طويلاً أمام هذه المقوله والنظرية . فالحضارات الكبرى ليست وليدة اليوم ، وإذا كان الجديد هو صراعها ، فلماذا لم يكن ذلك في القديم أيضاً ، وإلا فكيف يمكن تفسير الحروب الطاحنة التي دارت بين الدول الأوروبية ، وكلها في نطاق الحضارة المسيحية الغربية ؟ وكيف يمكن تفسير الحروب الطاحنة التي دارت بين الصين واليابان وكلتاها في نطاق الحضارة البوذية ؟ بل ، وكيف يمكن تفسير الحروب الأهلية وهي تجري في كل مرة داخل وطن واحد فضلاً عن حضارة واحدة !

وإذا كان ذلك كله لا يصلح في عملية البحث عن « نوح » جديد يحمل الإنسانية في فلكه أثناء الطوفان ، ويصل بها إلى بر أمان بعده – إذن فأين السبيل إلى القرن الواحد والعشرين ؟

□ □ □

لابد أن نعترف أن أحداً لا يملك جواباً ، لكن البحث عن جواب يحق أن يشغل كل الناس .

وإذا حاولنا أن ننضم إليهم ، فقد يكون مفيداً أن نبدأ بسؤال مبدئي
جوهرى :

ما الذي يؤثر سياسياً على أي مرحلة ؟ وعلى أي عصر ؟ وعلى أي قرن ؟ وما الذي يشكل ملامح أي زمن قادم ويحدد توجهاته ؟

والرد على هذا السؤال – ولا أظنتنا سوف نختلف عليه كثيراً – هو :

إن أي عصر سياسي تؤثر فيه بالدرجة الأولى ثلاثة عناصر :

١ - القوى المتنفلة فيه ؟

٢ - وبئر التوتر والصراع الظاهر أو الكامنة داخله ؟

٣ - والأفكار الواصلة إليه ؟

إن التوقف أمام هذا السؤال والرد عليه ضروريان ومهمان ، وقد يساعدنا أنه بعد خمس سنوات من يوم ٩ نوفمبر ١٩٨٩ وإلى الآن ، فإن طوفان الثلوج الذائبة قلت رهبته - ربما من التعود عليه - كما نزل منسوبيه - ربما بنوع من التسرب أو بخر الشمس - والتنتيجة أنه أصبح في مقدورنا أن نلمع بعض القمم والتنوعات والصخور العالية ، وإن كنا لازم بعد ما تحتها ، والأرجح أنها تخفى مشاهد بعضها مزعج وبعضها غريب ، بل وببعضها مأساوي !

فإذا عدنا إلى سؤالنا المبدئي والجسوري وتناولنا العنصر الأول فيه وهو عن : القوى المتنفلة في العصر - فإننا سوف نلمع على القمم والتنوعات والصخور التي تتبدل من تحت الطوفان شيئاً فريباً من العالم التالية ، ولنلاحظ دواماً أننا نتحدث عن بدايات القرن الواحد والعشرين ، لأننا واقعيًا لأنملك الفرصة لأكثر :

□□□ أولاً: سوف نلمع الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي نفس القوة التي سادت في القرن العشرين ووصلت في نهايتها إلى أعلى القمم ، وبالتالي فهي تظهر أمامنا الأعلى على سطح الطوفان والأقدر على التقاط الأنفاس والوصول إلى بر آمان .

ومع ذلك فالولايات المتحدة الأمريكية تبدو مرتبكة ، مقيدة في مساحة حركتها ، عصبية في تصرفاتها حتى الآن كأنها غير واثقة من الأرضية التي تقف عليها ب رغم طول القامة وعلو الهامة . ونستطيع أن نرصد بعض الأسباب ونطوف حولها بالنظر .

١ - نستطيع أن نقول إن الولايات المتحدة الأمريكية مستنزفة من مسئوليات الفترة التي قادت فيها النظام العالمي السابق ، فقد كانت الطرف الأكبر في حربين عالميين ساختين ، ثم إنها كانت الطرف الأوحد تقريباً في الحرب العالمية الباردة . وليس هناك ما هو أكثر تكلفة من الحروب ساخنة أو باردة . وفي لقاء مع الرئيس « شارل ديجول » جرى قبل ربع قرن تقريباً ، أذكره وهو يقول : « إن الولايات المتحدة سوف تكسب الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي ، لكنها سوف تخسر السلام بعدها لأنها سوف تخرج من هذه الحرب منهكة » . وعلى نحو ما فإن نبوءة ذلك السياسي البعيد النظر تبدو الآن قراءة للتاريخ وليس قراءة للفنegan !

٢ - والحاصل أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الآن أكبر مدين في العالم ، فحجم ديونها الداخلي والخارجي يتضاعف بسرعة خرافية - من ٨٥٠ مليون دولار في أوائل الثمانينات إلى ٤ تريليون دولار في أوائل التسعينات - والتقديرات الموثوقة لدى صندوق النقد الدولي أن حجم الدين الأمريكي واصل سنة ٢٠١٠ إلى درجة أن فوائده وحدها سوف تزيد عن حجم الناتج الإجمالي الأمريكي في تلك السنة .

٣ - ويسبب أولويات أملتها ضرورات الحروب ساخنة وباردة فإن الانتاج العسكري أصبح يمثل مساحة تزيد على ضروري على خريطة الإنتاج الأمريكي في إجماله ، ولقد حدث توسيع الإنتاج العسكري على حساب احتياجات أخرى سواء في مجالات البنية التحتية أو الإحلال والتجدد في وسائل الإنتاج المدني ، أو غير ذلك في مجال الخدمات وبينها التعليم والصحة .

والمشكلة في الحجم المتضخم للإنتاج العسكري أنه مع انتهاء عصر

الحروب العظمى فإن هذا الكم الهائل من السلاح يصبح بغير استخدام، كما أن فائضه الجاوز للتصدير يصبح عبئاً على الأسواق في مناخ دولي مختلف، ثم أن المشترين التقليديين من تعودوا - أو جرى تعويذهـم - على أن يأخذوا من الولايات المتحدة كل ما ترضـهـ - ونحن العرب أوهمـ - لم يعدـ في أيديهمـ كثيرـ يدفعـونـ لـ شراءـ السلاحـ الأمريكيـ .

والمشكلة في الخدمات ، ولابد أن نلاحظ هنا أنـنا نـتكلـمـ وـنـقارـنـ بـمـقـايـيسـ الـقـمـةـ الدـولـيـةـ وـلـيـسـ بـسـفـحـهاـ أـوـ قـاعـهاـ ، إنـ سـبـاقـ القرـنـ الـواحدـ وـالـعـشـرـينـ سـوـفـ تـظـهـرـ أـوـضـحـ مـؤـشـراتـهـ فـيـ مـيـادـيـنـ التـرـاضـيـ وـالتـوازنـ الـاجـتـمـاعـيـ ، وـبـالـتـحـدـيدـ فـرـصـ الـعـلـمـ وـالـتـعـلـيمـ وـالـصـحةـ .

وـالمـاـئـلـ أـمـامـناـ أـنـ مـسـتـوـيـ التـعـلـيمـ الـأـمـريـكـيـ نـزـلـ مـنـ المـرـكـزـ الـعـالـمـيـ الـأـوـلـ إـلـىـ المـرـكـزـ الـعـالـمـيـ السـابـعـ .

وابـجـارـىـ أـمـامـناـ أـنـ «ـ هـيـلـارـىـ كـلـيـتوـنـ »ـ التـىـ كـانـتـ تـطـمـعـ إـلـىـ دـخـولـ التـارـيـخـ عنـ طـرـيقـ مـشـرـوعـ لـلـتـأـمـيـنـ الصـحـىـ ، وـجـدـتـ نـفـسـهـ مـضـطـرـةـ إـلـىـ القـعـودـ عـنـهـ لـأـنـ تـكـلـفـتـهـ أـكـثـرـ مـاـ تـطـيـقـ الـخـزانـةـ الـأـمـريـكـيـةـ .

٤ - وهـنـاكـ مـعـضـلـةـ لـاـ نـظـهـرـ لـلـكـثـيرـينـ بـجـلـاءـ ، هـىـ أـنـ جـزـءـاـ كـبـيرـاـ مـنـ حـيـوـيـةـ المـجـتمـعـ الـأـمـريـكـيـ كـانـتـ رـاجـعـةـ إـلـىـ قـدـرـةـ هـذـاـ المـجـتمـعـ عـلـىـ اـسـتـيعـابـ وـهـضـمـ عـنـاصـرـ بـشـرـيـةـ مـنـ أـصـوـلـ مـخـلـفـةـ ، وـكـانـتـ هـذـهـ عـمـلـيـةـ مـجـدـدـةـ لـلـشـبـابـ وـالـمـشـطـةـ تـجـعـلـ مـنـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ Melting Potـ -ـ أـىـ وـعـاءـ صـهـرـ وـمـزـجـ مـنـ طـرـازـ مـثـيرـ وـفـرـيدـ -ـ لـكـنـ هـذـهـ عـمـلـيـةـ تـكـادـ تـوقـفـ لـاعـتـباـراتـ كـثـيرـةـ تـتـعـلـقـ بـمـشاـكـلـ التـميـزـ العـنـصـرـىـ ، وـمـوجـاتـ الـهـجـرـةـ الـجـدـيـدةـ الـمـشـروـعـةـ وـغـيرـ الـمـشـروـعـةـ ، مـعـ تـبـاطـؤـ فـيـ التـنـمـيـةـ وـزـيـادـةـ فـيـ الـمـطـالـبـ الـمـبـرـرـةـ ، وـغـيرـ الـمـبـرـرـةـ ، ثـمـ أـضـيـفـتـ إـلـىـ ذـلـكـ أـخـبـرـاـ دـعـاوـيـ الـهـوـيـةـ

الخاص . فإذا الولايات المتحدة تحول تدريجياً إلى مجموعات كتل إنسانية كأنها الجزر المعزولة . . كتل زنجية ، وكتل هندية ، وكتل لاتينية ، وكتل آسيوية ، وكتل أوروبية ، واستتبع ذلك إحياء ثقافات ولغات ومارسات جعلت ذلك البلد القارة مهدداً بانقسامات يستفحـل خطـرها ، الأمر الذي دعا مؤرخاً ممتازاً مثل « آرثر شـلـيزـنـجـر » إلى اصدار كتابه « الولايات غير المتحدة الأمريكية Disunited States of America » .

ومن المفارقات أن الصفة الحاكمة في أقوى بلد في العالم الآن مشغولة - إلى جانب هموم أخرى - بباحث أثبتت أن متوسط الذكاء العام للفرد الأمريكي قد انخفض بمعدل ٨٪ عما كان عليه منذ عشرين سنة طبقاً لقياسات علمية محددة !

٥ - إن جمل الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية في الولايات المتحدة أدى إلى نتائج يصعب غض النظر عنها ، وفي مقدمتها أن متوسط دخل الفرد تواضع في العشرين سنة الأخيرة من ٢٨ ألف دولار للفرد في السنة إلى ٢١ ألفاً . وفي نفس الوقت فإن تركيز الفقر في مقابل تركيز الغنى أصبح حاداً ، ومن الصعب أن يتصور بعضنا أن هناك ٣٠ مليون أمريكي يعيشون على حد الفقر وتحته ، كما أن ٢١ مليوناً من الأمريكيين أميون .

٦ - إن الثورة الإلكترونية مدت أثراًها إلى العملية السياسية وإلى مستوى صنع القرار ، ومن ذلك أن دخول البيت الأبيض أصبح أقرب إلى مؤشرات الصورة وإيحاءاتها منه إلى موجبات الاقتناع والاختيار ، ثم ترتب على ذلك أن البيت الأبيض وساكنيه أصبحوا ينامون على قنوات التلفزيون ويصحون عليها ، ثم إن استطلاعات الرأي العام أصبحت

تقدود القرار السياسي وأحياناً تفرضه ، وتنامي نتيجة ذلك نفوذ جماعات الضغط ، وليسنا في حاجة إلى التذكرة بتأثير جماعات الضغط الصهيوني على القرار الأميركي في الشرق الأوسط . ولم يعد الضغط حكراً على الجماعات الصهيونية . وقد رأينا أخيراً أزمة أوشكت أن تؤدي إلى الحرب مع كوبا ، وقيل في تبريرها إنه تأثير جماعات الضغط في فلوريدا وكلهم على صلة بالمعارضين لفيديل كاسترو . وأخيراً الحق بذلك تدخل الأميركي العسكري وبالفعل - وإن يكن تم بغير دم - في هايتي وقيل في تبريره إنه تأثير جماعات الضغط السوداء !

ولعله لم يعد خافياً أن صور القناة الإخبارية C.N.N أصبحت أكثر نفوذاً على قرار الرئيس الأميركي من مذكرات وزراء خارجيته ومستشاريه !

ونتيجة لذلك فإن القرار الأميركي الخارجي أصبح مرهوناً بمؤثرات داخلية موجهة أو عشوائية ، الأمر الذي دعا « دانتي كابور » مثل السكرتير العام للأمم المتحدة في هايتي أن يقدم استقالته قائلاً في خطاب الاستقالة وقد اطلعت على صورة منه : « لقد كنا توصلنا لحل للمشكلة في هايتي أكثر كفاءة واتساقاً مع المطلب الديمقراطي من كل ماوصل إليه ممثلو الرئيس كلبنتون الذين جاءوا إلى « بورت أو برنس » في أجواء التهديد بالحرب . ومن سوء الحظ أن المطالب الانتخابية للرئيس غلبت على مطالب الديمقراطية في هايتي ، وذلك وضع سيئ إلى درجة الإهانة للأمم المتحدة ، الأمر الذي يدعونى إلى تقديم استقالتي » .

ولم يكن ذلك الذي توصل إليه المندوب الدولي في هايتي اكتشافاً ، فقد تسرّبت إلى جريدة « نيويورك تيمز » فقرات من توصية كتبها « ليون بانيتا » رئيس أركان حرب البيت الأبيض إلى الرئيس ، جاء فيها بالنص :

«إن الرأي العام يتصورك «طريًا» ، ولابد أن تمحو هذا الانطباع من ذهنه ، وأزمة هايتي تعطيك الفرصة لذلك قبل انتخابات التجديد النصفى للكونجرس (نوفمبر ١٩٩٤) بحيث تساعد حزبك على النجاح فيها ، وعليك أن تتهزز الفرصة ، وأن تتصرف بحزم ، وأن تتصرف بقوة ، وأن لا تتردد في استعمال السلاح إذا أدى الأمر لكتى تغير صورتك أمام الرأى العام ، ويراك قويًا مبادرًا وقدارًا على الحسم» .

وقد تحقق لكليتون شيء من هذا بالفعل ، فشعبيته في استطلاعات الرأى العام - قبل انتخابات نوفمبر - زادت بنحو ستة في المائة نتيجة لتدخله في هايتي ولاندفاعة إلى الخليج بعد الأزمة الأخيرة ، ولعلها اليوم بزياراته للمنطقة تضيف واحدا أو اثنين في المائة إلى شعبيته .

إن هذه البواعث الغربية النافذة إلى صلب عملية اتخاذ القرار السياسي استدعت معها زواائد إضافية ، منها أن القرار لا يستطيع أن يعرض نفسه على الناس ببواushe الأصلية ، وإنها أصبح ضروريًا أن تسبقه وتحيط به وتلحقه عمليات تهيئة وتعبئة نفسية أحدثت تشويها مزعجا في أخلاقيات السياسة وأساليبها ، وأخطر من ذلك في نظر الرأى العام الأمريكي إلى العالم من حول .

٧ - ولقد زاد من تخبط القرار السياسي الأمريكي أنه فقد بؤرة التركيز التي أعطته هدفا محددا هو «إمبراطورية الشر» (على حد تعبير الرئيس «ريجان») في الاتحاد السوفييتي . وبالنسبة للقوى الدولية الكبرى فإن اختفاء العدو يحدث من خلل التوازن أحيانا أكثر مما يحدثه تخلي الخليفة ، وهناك فارق بين أن تبني دولة ما سياستها على مواجهة عقائدية مقدسة وبين ألا يكون لدى هذه الدولة من ذرائع للمحرب غير

المخدرات وحقوق الإنسان والديكتاتورية ، وتنتفي هذه السذرائع إذا تذكرنا أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A. مولت عملياتها لسنوات طويلة من التغاضى - وأحياناً الاشتراك - في تجارة المخدرات ، وأن الولايات المتحدة ليست بعيدة عن انتهاك حقوق الإنسان في موقع كثيرة من العالم ، وأن بعض أقرب الأصدقاء من واشنطن ليسوا من أنصار الديمقراطية وأحبابها ، بل إن بعضهم - «يلتسين» مثلاً - لم يتورع عن ضرب برلاته بمدافع الدبابات ، بينما الولايات المتحدة تصفق تشجيعاً وإعجاباً !

وقضايا القيم لا تقارب بمعايير مزدوجة وإلا ضاعت المعركة من أول لحظة بضياع المصداقية .

ومن شأن هذه العناصر كلها أن الولايات المتحدة - وعند جسور العبور إلى القرن الواحد والعشرين - تدخل إلى هذا القرن عصبية وغير واثقة من نفسها رغم أنها مازالت الأولى ، وهذه حقيقة لا يصح أن ننساها للحظة واحدة .

□□□ ثانياً : ومن بعيد ، وعلى صخرة خطرة مما يتبدى على سطح الطوفان ، نستطيع أن نلمع روسيا ، وهي الدولة الضخمة الباقة مما كان الاتحاد السوفيتي .

نحن أمام دولة انزلقت من فوق القمة ، وهي تحاول استعادة توارتها والعودة إلى دور تعتبر نفسها فيه وريثاً للاتحاد السوفيتي . وهي تملك الموارد الاقتصادية والبشرية التي تعزز دعواها على الأقل من ناحية نظرية . والحقيقة الخرجـة في دعواها - إلى جانب وجود أساس حقيقي لهذه الدعوى - أن روسيا مازالت تملك أكبر ترسانة نووية وأكبر قوة إطلاق للصواريخ ،

فنحن نتحدث عن ٤٩٠٠ رأس نووى . والتقىم الروسى الهاائل فى مجال الفضاء يقطع بوجود مقدرة تكنولوجية عالية ، وإن كانت طبائع النظام السوفيتى لم تسمح لهذه التكنولوجيا العسكرية أن تفيض على الجوانب المدنية للإنتاج .

ومن دواعى القلق أن العالم لم يستطع أن يتوصل إلى أسلوب ناضج يتعامل به مع روسيا ، فهناك مزيج من الرغبة فى الإضعاف وفي نفس الوقت الإبقاء على نوع من التواشك ولو عند الحد الأدنى ، وكان العالم يركز اهتمامه على «جورباتشوف» ويستنده ضد منافسه «يلتسين» . وحينما سقط «جورباتشوف» تحول الاهتمام إلى «يلتسين» لحياته ربما ضد نفسه . . أو ربما ضد البقايا الخزبية مما كان . . أو ربما ضد قوات مسلحة كان واجبها أن تخمى وطنها ، فإذا هي شاهد على تفكيره !

ومهما يكن فهناك الآن جهود تبذل ، وهناك مخاطر تهدد ، ولكن روسيا بمواردها وطاقاتها وما يجري فيها سوف تظل - على نحو أو آخر - عاملا ضاغطا على بدايات القرن الواحد والعشرين ، وبالذات إذا استطاعت أن تتوصل إلى ترتيبات صلبة مع مايسى بمجموعة الدول المستقلة والتي كانت في يوم من الأيام داخلة في إطار الاتحاد السوفيتى .

□□□ ثالثا : على إحدى القمم البارزة فوق سطح الطوفان نستطيع أن نلمح اليابان ، وهناك من يتصورون أن القرن القادم ياباني . واليابان معجزة بكل المقاييس ، وسوف يظهر دورها في القرن القادم بلا جدال ، لكنه من الصعب الآن رؤية القرن الواحد والعشرين على أنه قرن ياباني لعدة أسباب : فاليابان على طرف الأرض بعيداً عن القلب الذى كرسه قرون طويلة من التاريخ الإنسانى ، ثم إن مواردها محدودة وإن كانت مواهبتها

مفتوحة ، يضاف إلى ذلك أن قوتها العسكرية مقيدة . ثم إن اللغة الإنجليزية أصبحت لغة العالم ، أو ما يمكن تسميته Lingua Franca ، وبالتالي فإن الإعلام باللغة الإنجليزية ملك لنفسه نفوذاً كاسحاً إلى درجة أن سبع أو ثمان قنوات وصحف تقدر الآن على تحديد جدول أولويات الاهتمامات العالمية بغير منازع أو شريك تقريباً . والثقافة لها خصوصية داخلية لا تفضي ولا تفصح عن نفسها ببساطة لآخرين . والموقع ، وحجم الموارد والقدرات ، ثم اللغة والثقافة ، بما في ذلك نفوذ الإعلام - عناصر أساسية في ظهور الأدوار العالمية وصعودها .

وكانت اليابان حتى عهد قريب عملاً صناعياً يحاول تجنب السياسة . لكن ذلك كما أثبتت الظروف مستحيل - فكل قوة اقتصادية لابد لها من تعبر سياسياً عن نفسها ، ولابد لها من استراتيجية شاملة - وعسكرية أيضاً - تناسب حجم مصالحها في العالم . وهذه واحدة من أهم القضايا التي تلقى بظلها على بدايات القرن الواحد والعشرين .

□□□ رابعاً : وعلى هضبة بركانية التكווين تظهر على سطح الطوفان ، نستطيع أن نلمع الصين ، وهي واصلة في سنة ٢٠١٠ إلى تعداد سكان حجمه ما بين ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ مليون نسمة ، وفي تلك السنة فإن حجم إنتاجها القومي سوف يصل - بمعدل التنمية السنوي الحالى وهو ١٢٪ - إلى الحد الذى يتساوى فيه مع حجم الناتج القومى الأمريكى . ويضاعف من تأثير الصين في القرن القادم أو بداياته على الأقل ما يطلق عليه « مجموعة النمور الآسيوية » وهى تتحرك في نطاق جاذبية الكتلة الإنسانية الصينية المهولة .

على أن أمام الصين عقبات أهمها تحقيق انتقال سلمى من الفقر إلى الوفرة ، وضمان توازن بين حجم السكان وحجم الغذاء الضروري لهم ، إلى جانب

مشاكل التحول من المركزية إلى التعددية مع اتساع الأقاليم وعمق المواريث .

ومعها يكن وبصرف النظر عن كل العقبات فإن الصين بإمكانها إثباتها ومصاعبها سوف تكون فاعلاً رئيسياً في تشكيل ماهو آت .

□□ خامساً : وعلى سلسلة جبال تظهر رؤوسها فوق سطح الطوفان نستطيع أن نرى أوروبا الغربية ، وألمانيا الموحدة على أعلى الرؤوس ، ولقد حققت وحدتها بعد الطوفان ونتيجة له ، وهي ما زالت تستوعب نتائج وتعابات وحدتها ، ولا تزال حائرة في اتجاه حركتها بعد الوحدة ، فهناك من يدعوا فيها إلى علاقة خاصة مع الولايات المتحدة ، وهناك من يدعوا إلى علاقة خاصة مع فرنسا ، وهناك - وهذه مسألة حساسة - من يدعوا إلى علاقة خاصة مع روسيا . وإذا تذكراً أن التاريخ الألماني كان باستمرار زماناً يبحث عن مكان ، وإذا تذكراً أن ألمانيا تعتبر روسيا عميقها إلى الباسيفيك بمقدار ما إن روسيا تعتبر ألمانيا شاطئها إلى الأطلنطي - إذن فإن الاختيار الاستراتيجي الألماني سوف يلعب - إلى جانب القوة الذاتية والكفاءة الممتازة - دوراً بارزاً في القرن القادم .

□□ سادساً : هناك قوى أخرى في آسيا مثل الهند ، وقوى أخرى في أمريكا اللاتينية مثل الأرجنتين - لكن هذه القوى جميعاً تتراجع على الموج ، ولا يجدوا واضحاً إذا كانت ستخرج منه إلى القرن الجديد أو أنها ستغوص في القاع .

□□□ سابعاً : وليس آخر - أنتا تستطيع أن تلمع فوق سطح الطوفان عملية سباحة نشيطة وسريعة تقوم بها ألف شركة عالمية تملك أو تسيطر على نصف الإنتاج العالمي بالضبط وإذا تصور أحد أن هذه القوة الجبارة تحصر همها في شئون الاقتصاد بعيداً عن شئون السياسة والتوجيه ، فإن مثل هذا التصور نوع من طيبة القلب الزائدة تنتظر من أسراب المرجان أن تسبيح بأمان وسط قوافل الحيتان !

هكذا فإننا أمام ناس يقدرون ، وناس يحاولون ، وناس لا يجدون أنهم يقدرون أو يحاولون ، وببعضهم يأمل أن ينقذه أحد لأنه يستطيع أن يخدم ويفيد ، ثم إن هناك ناسا سوف يغرقون لأنهم لا يقدرون ولا يحاولون ، ولا أحد يتضرر منهم خدمة أو فائدة ، وأظن أن ذلك حال كثيرين في أفريقيا على وجه التحديد ، فمساحات واسعة في هذه القارة البايسة سوف تظل في القرن القادم مختنقة أو غريبة وسط ركام ما بعد الطوفان .

□ □ □

ننتقل الآن إلى العنصر الثاني من العناصر المؤثرة على القرن الواحد والعشرين ، وهو ضغوط بور التوتر والصراع الظاهر أو الكامنة في المستقبل القريب ، وأذكر منها بسرعة :

١ - أن الولايات المتحدة الأمريكية لن تقبل ببساطة أن تصل إلى سنة ٢٠١٠ لتجد أن فوائد ديونها تستغرق كامل دخلها القومي ، وإنذن فلابد لها أن تحاول بكل وسيلة أن لا تصل إلى هذا المأزق مهما كان الثمن .

من هنا بالضبط فإن الولايات المتحدة أنهت حربا عقائدية باردة مع الاتحاد السوفياتي لكن تلتفت إلى حرب اقتصادية وتجارية مع اليابان ، وإلى حد ما مع أوروبا الغربية وألمانيا في طليعتها .

وربما أن السياسة الأمريكية لهذا السبب بالضبط تحاول تعطيل التقدم على جبهة الغرب وجبهة الشرق ، فهي في أوروبا تحاول إغراء غرب أوروبا بأن يدخل في ضبط مشاكل شرق أوروبا ، ويتحمل تبعاته وتكليفه ، وغرب أوروبا لا يريد أن يتورط ، وهذا مدلول ما يجري فعلا في يوغوسلافيا السابقة .

وربما لهذا السبب بالضبط أن الولايات المتحدة على جبهة الشرق تحاول أن تعيق إمكانية أي لقاء استراتيجي بين اليابان والصين ، وهذه بالفعل هي الاستراتيجية الأمريكية في الشرق ، وهي بالطبع تتوقع أن كلّا من العملاق الياباني والعملاق الصيني مضططر إلى أن يزاحم الآخر والآخرين بحثا عن حيز يتسع له في مكانه وفي العالم .

وربما لهذا السبب أيضاً أن الولايات المتحدة تمارس ضغوطاً عنيفة وقاسية على الدول العربية لكي تقبل بسلام أمر واقع مع إسرائيل ، تظن أنه يكفل أمن الشرق الأوسط ويؤكد سيطرة أمريكية لاتنافع على موقعه وموارده .

ومن ذلك كله فإن الدور الأمريكي في مطلع القرن الواحد والعشرين سوف يلجم إلى ألوان من العنف قد تكون مستحدثة في ممارساتها ، ظاهرة وخفية . وأحياناً ما يكون التشبيث بالبقاء على القمة أشد حاجة للعنف من الصعود إليها .

٢ - إن روسيا في نفس الوقت - ورغم متاعبها الداخلية سياسية واجتماعية - تريد استعادة توازنها بسرعة وإثبات حقها كدولة عظمى ، والخطورة تكمن في أن الترسانة النووية الروسية الهائلة هي مبرر دعواها الراهنة كقوة عظمى حتى

تتمكن من تحريك بقية الإمكانيات التي تمكنت لدورها في القرن المُقبل . ثم إن روسيا فضلاً عن تلهفها على استعادة توازنها ، تحاول أيضاً استعادة دورها وهيمنتها على النطاق الإمبراطوري الذي كان يحيط بها قبل انفراط الدولة السوفيتية .

وعندما تكون وسيلة أي دولة إلى استعادة توازنها دورها هي الاعتماد على ترسانة نووية ، لها عمر افتراضي قبل أن تقادم ، ثم إن تجديدها والحفاظ على تفوقها يتطلبان موارد غير متاحة في الحال ، إذن فنحن أمام وضع ساخن يستطيع أن يصبح كتلة حرجية في أي وقت .

٣ - إن قلب العالم القديم كله وبحاره الملونة الأبيض والأسود والأحمر ، حتى المحيط الهندي - أعني بذلك البلقان وجنوب الاتحاد السوفيتي السابق والشرق الأوسط ، وكلها مناطق تتصل بعضها - أصبحت مناطق فوران إلى درجة الغليان . ويكتفى أن نظرل بنظرة على خريطة - والخريطة خير دليل إلى السياسة - لكي ندرك خطورة ما يجري في يوغوسلافيا السابقة وحولها ، وفي الجنوب المسلم للاتحاد السوفيتي ، وإلى أفغانستان ، وباكستان وإيران ، والخليج ، والهلال الخصيب (العراق وسوريا وفلسطين) ، وتركيا ، وفي هذه المناطق كلها ساعدت أوضاع اقتصادية متدنية على جروح وإنفلات هويات عرقية ودينية وطائفية وثقافية كانت نائمة أو مكبوتة ثم استيقظت على صدمة العصر وظروفه . كل ذلك مع تداخل في العصبيات له جذوره وعقده ، ثم وفرة في السلاح - مع نقص في كفاءة القيادة - أدى إلى تقلبات مؤلمة ودموية .

٤ - ولقد استفحـل ذلك كله من واقع أن مستوى القرار السياسي على مستوى العالم أضعـعـ الكثـيرـ من قدرـتهـ علىـ الرؤـيةـ الشـاملـةـ وـعـلـىـ التـصـرـفـ المـستـينـ .

فصنع القرار في الولايات المتحدة مبالغ في عصبيته بتأثيرات المأزق الاقتصادي

الاجتماعي ومضاعفاته ، وهو أحياناً مبالغ في سطحنته بحكم ضغط الإعلام وشحنته المكثرة . وصنع القرار في روسيا مبالغ في انفعالاته بعد تجربة أشبه بضربة الزلزال . وصنع القرار في أوروبا مبالغ في حذرته يهتم بشروطه ومستوى حياته ، ويخشى أن يتورط . وصنع القرار الصيني مهمتهم بتأكيد حقه في المساواة مع الكبار بعد إنكار طال عن حده . ثم إن القرار الياباني ما زال بعد حائراً بين زهرة « الكريز انتم » وسيف « الساموراي » .

وهكذا فإنـه في مرحلة من أخطر مراحل التاريخ الإنساني يتولى إدارة شئون القرية العالمية مستوى من القيادات بعضها لا يقدر وبعضها لا يستطيع وبعضها لا يريد .

٥ - إن هناك على مستوى العالم تناقضات حادة بين الأغنياء والفقراـء ، وقد كانت هذه التناقضات موجودة دائمـاً ، وجرى التعبير عنها مرة بتقسيم الكرة الأرضية إلى عالم أول وعالم ثان وعالم ثالـث . ثم شاع فيها بعد تعبير الشمال والجنوب .. شمال غـنى وجنوب فقير . وتلك كلـها تحديـات أصبحـت تفتقر إلى الدقة في تغطـية حقيقة التناقض بين أغنيـاء وفـقراـء .

فالصين مثلاً من العالم الثالث ، أو هكـذا كان حـسابـها ، لكنـها تـخطـو الآن خارـجه .

ويمور آسيا في الجنـوب ، ولكنـ من الذـى يستـطـيع أن يـحسـبـهم من الفـقـراـء .

وإذن فإنـ التقسيـمات المـتعـارـفـ عليها لم تعد منـطبقـة علىـ الحقـائقـ المتـغـيرـة .

والحاـصلـ أنه لمـ يـعدـ هناكـ مـفرـ منـ تـسمـيةـ الأـشيـاءـ بـأسـمائـهاـ ، أـىـ أـغـنيـاءـ وـفـقـراـءـ .

ولـقدـ زـادـ منـ حـدةـ التـناـقـضـ بـيـنـ الـاثـيـنـ أـنـ «ـ القرـيةـ العـالـمـيةـ الـواـحـدـةـ»ـ إـذـاـ صـحـ الوـصـفـ .ـ جـعـلـتـ كـلـ طـرـفـ فيـ مـرأـيـ منـ الـآخـرـ ،ـ وـقـدـ تـرسـخـ بـيـنـ الـاثـيـنـ نـوعـ منـ الـخـوفـ وـالـكـراـهـيـةـ يـظـهـرـ أـبـرـزـ نـهاـذـجـهـ حـيـاـ عـلـىـ شـاطـئـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ .ـ أـغـنيـاءـ

فِي الشَّاطئِ الشَّمالي يخشون مِن نزوح فقراء الشَّاطئِ الجنوبي إِلَيْهم ، وفقراء عَلَى الشَّاطئِ الجنوبي يتذكرون أَن الشَّاطئِ الآخر جَاء إِلَيْهم مُسْتَعْمِراً ونهب ثرواتِهِ وذهب ، وعندما تصوّروا أَنْهُمْ يُسْتَطِيعُونَ البحثُ عَنْ فرصةٍ غَنِيَّةٍ أَوْ عَملٍ فِيهِ قَامَتِ التَّارِيسِ والخواجزِ مُنْيَةً وعَالِيَةً .

ثُمَّ تَكَفَّلتِ وسائلِ الاتصالاتِ بِتَحْوِيلِ التَّنَاقُضِ إِلَى أَزْمَةٍ لِأَنَّ التَّطَلُّعَاتِ المُشْرُوَّةَ لِلْفَقَرَاءِ الَّذِينَ أَصْبَحُوكُمْ فَكْرَةً عَنْ مَسْتَوِيِّ مَعِيشَةِ الْأَغْنِيَاءِ - حَوَّلَتِ التَّنَاقُضِ إِلَى عَدَاءٍ يُوشِّكُ أَنْ يَسْتَحْكِمَ .

وَعَنْدَمَا تَرَاجَعَ الْفَقَرَاءُ عَنْ أَحَلَامِ التَّنَمِيَّةِ بِفَعْلِ الْمَصَاعِبِ ، بِمَا فِيهَا اسْتِغْلَالِ ونهبِ مواردهم وحقوقهم ، إِلَى الدِّينِ حِمَايَةً وَحُصْنًا ، تَفَجَّرَتِ الْمَوَارِيثُ الْقَدِيمَةُ وَالْتَّحِيزَاتُ الْثَّقَافِيَّةُ الْكَامِنَةُ فَإِذَا أُورُوبِياً تَتَحَدَّثُ مَهْتَاجَةً عَنْ خَطَرِ الْإِسْلَامِ الْزَّاحِفِ ، وَتَتَنَادِيُ لَرَدُّ «بَوَاتِيَّهُ» اِجْتِمَاعِيَّةً ، حَلَّتِ مَحْلُّ «بَوَاتِيَّهُ» عَسْكَرِيَّةً كَادَتِ الْإِسْلَامُ أَنْ يَدْخُلَ أُورُوبِياً لَوْلَا أَنْ تَصْدِيَ «شارِلُ مَارِتِلُ» لِوَقْفِ زَحْفِ الْمُسْلِمِينَ .

أَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا شَعُورُ الْفَقَرَاءِ بِالْخِيَانَةِ ، لِأَنَّ الصَّفْوَةَ بَيْنَهُمْ وَقَدْ اغْتَثَتْ - انْفَصَلَتْ طَبَقيَاً وَانْضَمَّتْ إِلَى أَغْنِيَاءِ الْعَالَمِ مُتَوَاطِئَةً مَعَهُمْ ضَدَّ الْفَقَرَاءِ مِنْ شَعُورِهِمْ ، وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ الصَّفْوَةُ إِلَى أَغْنِيَاءِ الْعَالَمِ وَمَعَهَا ثَرَوَاتُهَا . وَرِبَّا يُسَاعِدُنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ النَّظَامَ الْبَنَكِيَّ الْعَالَمِيَّ تَدُورُ فِيهِ الْأَكْنَ :

٤٣٠ بَلِيُونَ دُولَارٍ تَقْرِيبًا مِنْ أَمْوَالِ مَوَاطِنِيْنَ سَعُودِيْنَ (لَا تَشْمَلُ الْمَلَكِيَّةِ الْعَقَارِيَّةِ أَوِ الزَّرَاعِيَّةِ) .

١١٢ بَلِيُونَ دُولَارٍ تَقْرِيبًا مِنْ أَمْوَالِ مَوَاطِنِيْنَ مَصْرِيْنَ .

٧٤ بَلِيُونَ دُولَارٍ تَقْرِيبًا مِنْ أَمْوَالِ مَوَاطِنِيْنَ جَزَائِرِيْنَ .

٦٥ بَلِيُونَ دُولَارٍ تَقْرِيبًا مِنْ أَمْوَالِ مَوَاطِنِيْنَ سُورِيْنَ .

وغير هؤلاء كثيرون ، وهذا عدا حقيقة أن الدول التي يتتمى إليها أصحاب هذه الثروات أصبحت كدول غارقة في الديون ، حتى تلك التي كانت تعتبر ضمنها من أغنى الأغنياء .

٦ - إن العالم يشهد اليوم ثورة جديدة يمكن تسميتها بأنها « ثورة الشراء » وهي ثورة تفرعت عن الثورة الإلكترونية ، وإن كانت قد اكتسبت لنفسها قوة اندفاع مستقلة ومستبددة . إن هذه الثورة بدأت ببطاقات الائتمان التي شجعت على أنواع من الاستهلاك الملهوفة لم تتوفر تكاليفها بعد لدى أصحابها ، وهم يشترون اليوم ويدفعون في يوم آخر ، ولحق بذلك اتساع نطاق بورصات العالم وحقيقة أنها أصبحت تعمل ٢٤ ساعة كل يوم في ملايين من الأسهم والسنادات والمضاربة على العملات والعقود الآجلة لسلع غير موجودة ، وهي عملية حجمها الآن تريليون دولار كل يوم ، وهي تأخذ وتعطى كميات هائلة من الثروات ببنية التحتية خاطفة .

إن هذه الثورة من أجل الثروة أضافت عقيدة إلى العقائد العالمية التي لم تسقط ، فإذا كنا قد عرفنا أنواعا من الـ "Isms" مثل الشيوعية "Communism" والرأسمالية "Capitalism" فنحن نشهد اليوم "Ism" جديدة أطلق عليها لورد « موج » رئيس تحرير « التيمس » الأسبق ، أثناء حوار ساخر في لندن أخيرا - وصف "Now Nowism" أي « هنا وأن وفورا » في طلب الشراء السريع ، وذلك يشكل حالة « قرصنة » على مستوى العالم ، لا يعرف أحد ماذا تفعل به وإلى أين تقوده ؟ وبأية معايير ، وأية ضوابط ؟ ، وإن كنا قد رأينا من وقت قريب موقعة قراصنة تحبس الأنفاس ، وذلك حين قامت مجموعة « سورور » بغاية مفاجئة على الجنيه الاسترليني . وفي ظرف ساعات أرغمهته على الخروج من سلة العملات الأوروبية ، وخفضت قيمته بنسبة٪٢٥ ، وحققت لنفسها أرباحا يتراوح تقديرها ما بين ٨ إلى ١٠ بلايين دولار .

٧ - إن فقراء العالم يعيشون حالة دوار ، فقد تبخرت ثورة التطلعات التي رافقت ثورة التحرر الوطني ، فإذا السيطرة تعود في صورة أخرى يمثلها البنك الدولي ، وصدقى النقد الدولى ، وقد أصبحت دبلوماسية كل منها بديلا - في مطالع القرن الواحد والعشرين - لدبلوماسية البارج التي عرفتها مطالع القرن التاسع عشر ، وهذا التشبيه ليس من عندي ، وإنما هو للاقتصادى البريطانى الشهير السير « آلان والترز » الذى كان لسنوات عديدة مستشاراً لمارجريت تاتشر ، وقد كتبه ونشره قبل أيام في صحيفة « التيمس » .

٨ - والأغنياء اليوم يملكون فرض الشروط على الفقراء في ميادين التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وقد تأكّدت سيطرتهم بسلطة البنك الدولي ، وصدقى النقد الدولى ، وأضيفت إليهما أخيراً منظمة التجارة العالمية التي انتهت إليها مفاوضات الجات ، والخشية لدى كثيرين أن شروط التجارة المقبّلة سوف تجهض آمال التقدّم لدى الفقراء ، وسوف تزيد الفجوة بينهم وبين الأغنياء ، ولعلها سوف تضيف إلى التزح الاستعماري القديم للموارد نزحاً جديداً باسم حرية التجارة هذه المرة . وربما يستوقفنا أن تقدّيرات آثار جولة أورجواي تعطى مجموعة الاتحاد الأوروبي الأولى وحدها أرباحاً جديدة تقدر بثمانين بليون دولار سنوياً ، في مقابل خسائر للدول الأفريقية البائسة جنوبى الصحراء تقدر بحوالى ثلاثة بلايين دولار سنوياً .

□ □ □

وإذا قلنا إن الأفكار هي المناخ الذي يعيش الناس فيه ، إذن فنحن في أجواء شديدة الغرابة ، وأقرب إلى الواقع أن نقول إن العالم يعيش عدة مناطق مناخية في وقت واحد . فهناك رياح باردة ورياح ساخنة في نفس اللحظة ، وعواصف

ثلجية وعواصف خاسين في نفس اللحظة ، وشمس ربيع وظلمة صقيع في نفس اللحظة ، بسبب العالمية في الوسائل والخصوصية في الحقائق . ونتذكر أن وسائل الاتصال هي أجنحة الأفكار والقيم والأحلام ، لكن الحقائق على الأرض تمشي ولا تطير .

وهكذا فإن الأفكار والقيم والأحلام تستقل من بيئتها إلى بيئه مع وجود مناطق ارتفاع ومناطق انخفاض في الضغط ، مما تولدت عنه اضطرابات وزوابع عصفت بالناس وربكت توجهاتهم ، في حين أن الحقائق تتحرك ببطء .

وهكذا دخلت مناطق كثيرة من العالم في دوامت لا يقر قرارها :

□ في العالم الغني انسياق إلى المادية ينتهي بالإنسانية إلى حالة فراغ موحش وعدمي .

وفي مقابل ذلك ففي العالم الفقير استسلام غير واع للقيم الروحية ، وكأن هذه الدنيا لا تستحق من أحد أن يحياها إلا معرضًا عنها أو كارها لها .

□ وفي العالم الغني رغبة في الاستئثار بلغت حدودًا يصعب قبولها ، حتى أصبحت في بعض الأحيان نزعات من السيطرة المتوحشة .

وفي مقابل ذلك ففي العالم الفقير وهم بأن الحق يحيى لأصحابه نائمين باطمئنان في انتظاره ، أو داعين من أجله في تبدل ، أو صارخين بالعصبية في طلبه .. وكلها شروط استحالة .

□ وفي العالم الغني إدراك لدور الدولة في عمليات التنمية والتجارة ، يكفينا مثالاً عليه تدخل «مارجريت تاتشر» بنفسها ، و«جون ماجور» بعدها ، في إقرار وتمرير صفقة «الياما» لتزويد السعودية بنظام «التورنادو» للدفاع الجوي ، وهي صفقة حجمها مائة بليون دولار بحسب المعدات والتجهيزات وقطع الغيار اللازمة لها لسنوات قادمة .

وفي مقابل ذلك دخان أزرق يختر الفقراء بأن الدولة قد أغفت من مسئولياتها في العصر الحديث ، وأنها الآن حكم بين الطبقات وممثل لأبهة الوطن في المظاهر والمراسيم والمناسبات .

وحيث حاول بعض الفقراء أن يجددوا فقد سقطوا في شراك معدة بعناية ، بينما استبدال غيبة حتمية التقدم بغيبة مطلقات السوق ، وبينها الانتقال من احتكار الدولة الكاسح لعملية التنمية إلى اعتزال الدولة الكامل لعملية التنمية ، وبينها نسيان الفارق بين استيراد التكنولوجيا من محتكرها وبين الانفتاح عليها والمشاركة في صنعها ، وبينها قطع الوشائج بين العمل والغنى وبين التنظيم والنجاح وبين توازن القوى وتوازن المصالح ناسين أن واحدة تترتب منطقيا على الأخرى ، وهكذا .

ولقد راح الكثيرون يتحدثون جزافا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان دونوعى كاف بأن هذه القيم العظيمة نتائج أكثر منها مقدمات . وهي نتائج لتفاعلات اقتصادية اجتماعية تصل المجتمعات معها إلى حالة من التوازن تجعل من كل مواطن طرفا مسؤولا وليس مجرد رعية طيبة ، وحالة المواطن درجة لاتصل إليها الأمم إلا بعد صراعات طويلة وقاسية يستحيل اختصارها ، وإن أمكن تسريعها ، ويظل أمرها مرهونا فيها أظن باتساع الآفاق الممكنة للصعود الاجتماعي .

وإذا تعطل أو توقف الحراك الاجتماعي بين الطبقات وبين الشعوب وبين الأمم ، إذن فنحن أمام تناقض محتمد على مستوى العالم ، ونحن أمام انفلات بين سلطة قادرين وتفرد مستضعفين ، وهي جبهة مواجهة عريضة عنيفة وطويلة .



حتى الآن كنت أتحدث من منظور واسع . وربما أن الوقت قد حان لبعض التركيز على العالم العربي ، لكن نصل في النهاية إلى مصر والقرن الواحد والعشرين .

وعلى مستوى العالم العربي فإننا ندخل إلى القرن الجديد ونحن في إسار مجموعة من العوائق لا أعرف كيف نتخطاها إلى القرن الجديد . وسوف أتحدث عنها باقتضاب ، ولو كمجرد رؤوس عناوين :

١ - إن العالم العربي أوقع نفسه في شراك نصبها له الآخرون بوعى ، ونصبها لنفسه بغير وعى ، وقع بسبب ذلك أسيراً لتناقضات لا يظهر لها حل :

□ تناقض بين الدين والعلم يلهي عن حقيقة أن الله الذي خلق الإنسان جعل له قلباً وعقلاً في نفس كيانه ، وكلاهما فاعل في اتساق مع الآخر ، فاللوحي الإلهي لايمكن أن يكون إلا صادقاً ، والبرهان العقلي لايمكن أن يكون إلا سليماً ، وأى تناقض بين الاثنين تعسف مفتعل ، وباب الاجتهاد هو الجسر المفتوح لعبور فجوة هذا التعسف المفتعل .

□ تناقض بين العروبة والإسلام يضع أحدهما في تباعد عن الآخر ، في حين أن التجربة التاريخية والإنسانية تؤكد أن المحتوى الحضاري للقومية العربية إسلامي ، والغريب أن المفكرين من المسيحيين أول من يعترف بهذه الحقيقة في حين ينكروا بعض المشتغلين بالفكر الإسلامي .

□ تناقض بين الوطنية والقومية كان كل واحد منا لا يملك غير هوية واحدة تستبعد إلى حد الإلغاء كل شخصية سواها . والغريب أن الأوروبي يستطيع أن يكون فرنسياً مثلاً ، وأن يكون أوروبياً ، وأن يكون غربياً ، وأن يكون مسيحياً - كله في نفس الوقت . وأما نحن فمكتوب علينا أن تكون بعدها واحداً فقط ، فإذا تعددت الأبعاد حل الشرك .

□ تناقض بين الأصالة والحداثة ناسين أن القادر على شوط الحداثة هو ذلك الذي يملك قاعدة الأصالة ، غافلين عن أن الأمة العربية بمحظها مختلف شعوبها مؤسس نشط في البنيان العالمي للحضارة الإنسانية .

□ تناقض بين الحاضر والماضي يورطه باستمرار في إعادة ترتيب التاريخ وكتابته بحيث يجعل ماقع بالأمس ، أو مايدعى بوقوعه في الأمس ، مبرراً لما يجري هذه اللحظة ومايتداعى بعدها ، وهذا خطر يسلب الأمم تراكم تجاربها ويخصرها في تراكم أخطائها .

□ بل ووصل التناقض إلى أن الأمة أصبحت مولعة بالبحث عنها يفرقها أكثر من بحثها عنها يجمعها ، وأحياناً يصبح هذا البحث لعبه عبثية مكلفة وباهظة في أعبياتها النفسية والسياسية والمادية أيضاً . فهناك معركة لا لزوم لها بين العلمانية والأصولية ، ومعركة بين القطاع الخاص والقطاع العام ، ومعركة بين القبائل والمدن ، كما تحولت السياسة إلى عداوات بين المراحل التاريخية وقياداتها المختلفة .

٢ - إن العالم العربي بدد ثروة من أكبر الثروات التي أتيحت في التاريخ لأمة تؤسس نفسها ، أو حتى لإمبراطورية تبني قوتها .

وعلى سبيل المثال فإنه في ربع القرن الأخير بلغ مدخل الأمة العربية من مواردها المتعددة - وأهمها البترول - مايقدر بأربعة تريليونات دولار ، ويمكن أن يقال إجمالاً إن تريليوناً منها توجهت لبناء مشاريع بنية أساسية في البلاد العربية إلى جانب بعض مشروعات الخدمات والإنتاج ، ويمكن وفق نفس التقدير الإجمالي أن يقال إن تريليوناً ثانية ذهبت في مشتريات سلاح يعلم الله ما فعل وما يفعل - لكن نصف المدخلات العربية - ٢ تريليون دولار - تحتاج إلى من يبحث عنها .

٣ - إن العالم العربي فقد الإحساس بهويته وتملكته نزعات القبائل المتحاربة ، ونتيجة لذلك فقد ضاع منه جامعه المشترك وموافقه المشتركة وهدفه المشترك .

وربما كانت نظرة واحدة إلى حال جامعة الدول العربية كافية لإظهار مدى التردى الذى وصل إليه الوضع العربى العام . ومن المفارقات أن هذه الجامعة تستعد قريبا للاحتفال بالذكرى الخمسين - نصف قرن على تأسيسها - لكن المشهد العام باعث على الحزن خال من الفرح !

ولعل استدرك بأننى واحد من الناس الذين يتمنون المحافظة على الجامعة وميثاقها برغم كل الأحزان ، وحتى إذا اضطررنا إلى وضعها في ثلاثة التجميد العميق فإن بقاءها - رمزا ومؤسسة - قد يكون نافعا ذات يوم إذا عادت العقول إلى الرؤوس ، وعاد البصر إلى العيون ، وعادت البصيرة إلى القلوب !

٤ - هناك أزمة شرعية . فمعظم الأنظمة في العالم العربي تحكم بقوة الأمر الواقع دون أساس يقوم عليه بناء سياسى يكفل سهولة الحركة ويسراها ، ولعل ذلك يفسر جزءا من اختناقات الفكر والعمل في العالم العربى ، مما أعطى الفرصة لهبوب عواصف من السخط والغضب . ثم إن أزمة الشرعية لا تقتصر على قضية السلطة ، وإنما هي تمتد ظلها إلى مشروعية الثروة ، فهناك ثروات كبيرة وكثيرة في العالم العربى لا تبدو مبررة ، أو مستندة إلى حق طبيعى بالإرث أو مكتسب بالعمل ، وهذه قضية باللغة الحساسية خصوصا إذا تذكرا أن الشرعية في أساسها قبول طوعى وليس فرضا بالقسر ، وإلا فإن السخط والغضب السياسى يمكن أن يلحق بها سخط وغضب اجتماعى ، وهذه معاشرة خطيرة لا تستطيع أن تتحملها مجتمعات هشة لم تترسخ فيها بعد سيادة الدساتير والقوانين .

٥ - هناك أزمة خلافة ، وهى نتيجة طبيعة لما سبق . فنحن لا نعرف مثلا ماذا بعد «حسنى مبارك» في مصر ، ولا ماذا بعد «حافظ الأسد» في سوريا ، ولا ماذا

بعد «الأمين زروال» في الجزائر ، ولا ماذا بعد «زين العابدين بن علي» في تونس ، ولا ماذا بعد «صدام حسين» في العراق ، ولا ماذا بعد «معمر القذافي» في ليبيا ؟

بل إنه حتى في النظم الوراثية تبدو قضية الخلافة ملتبسة بالظنون . ولقد صدر أخيراً تقرير عن معهد واشنطن للدراسات السياسية كان عنوانه «ماذا بعد فهد؟» ، فالخلافة في السعودية قضية تحيط بها أجواء عائلية حرجة . ويمكن أن نضيف «ماذا بعد السلطان قابوس» في عمان وقد تزوج ابنة عمه وانتهى زواجهما بعد ستين دون أن ينجحا ابناً تكون له ولادة العهد ؟ ، وماذا بعد «الحسين» في المغرب أو بعد «الحسين» في الأردن رغم أن كليهما سمي لنفسه ولـى عهـد ؟

ويتصـل بـمشـكلـةـ الخـلاـفـةـ أـنـ هـنـاكـ تصـلـبـاـ فـيـ شـرـائـينـ الـحـيـاةـ الـعـامـةـ فـيـ الـعـالـمـ الـعـرـبـ ،ـ فـالـدـمـ لـاـ يـتـدـفـقـ بـحـرـيـةـ وـلـاـ يـتـجـدـدـ بـحـيـوـيـةـ ،ـ وـيـكـفـىـ أـنـ تـذـكـرـ أـنـ أـكـثـرـ حـكـامـ الـعـرـبـ شـبـابـاـ وـأـصـفـرـهـمـ سـنـاـ ،ـ وـهـوـ «ـمـعـمـرـ القـذـافـيـ»ـ مـضـىـ عـلـيـهـ فـيـ السـلـطـةـ رـيـعـ قـرـنـ بـأـكـمـلـهـ ،ـ مـنـ سـنـةـ ١٩٦٩ـ إـلـىـ سـنـةـ ١٩٩٤ـ ،ـ وـهـذـاـ وـضـعـ لـاـ أـظـنـ أـنـ لـهـ مـثـيلـاـ فـيـ بـقـعـةـ أـخـرىـ مـنـ عـالـمـ نـقـولـ إـنـ عـواـصـفـ التـغـيـرـ تـهـبـ عـلـيـهـ وـتـهـزـ إـلـىـ الـأـعـاقـ هـرـاـ .ـ

٦ - إن العالم العربي يعيش في أسر أكبر حشد من القوانين تعرفه أي منطقة غيره ، فنحن نعيش تحت سلطة القوانين التي صدرت لحماية النظم الملكية ، والقوانين التي صدرت لحماية النظم الثورية ، والقوانين التي صدرت لحماية المكاتب الاشتراكية ، والقوانين التي صدرت لحماية الأمن القومي ضد إسرائيل ، وضد الغرب ، وضد الشيوعية ، وضد الإرهاب ، والقوانين التي صدرت لضرورات حالة الحرب ، والقوانين التي صدرت لقتضيات حالة السلام .. وكله باق بصرف النظر عن تغير الظروف وتغير العصور وتغير القرون !

٧ - ونحن نتصور أننا مقبلون على عصر من السلام مع إسرائيل ، ولكن السلام اختيار حر يقام - إذا قام - على تراضٍ بالتوافق يضمن مصالح وأمن جميع الأطراف . والسلام الذي يجري صنعه في العالم العربي الآن لا يبدو سلاماً حقيقياً قادرًا على الازدهار ، وفي صميم الموضوع فإنه سلام يقوم على امتلاك إسرائيل لسلاح نووي ، وقصور الآخرين حتى عن مقدرة الدفاع عن النفس فضلاً عن التمسك بالحق . وربما يكفيانا أن ندرس بعمق كاف اتفاق « غزة وأريحا أولاً » ، وهو اتفاق يستحيل وصفه إلا بأنه اتفاق إذعان . ثم إن الطريقة التي يجري بها التعامل مع إسرائيل توحى في كل تفاصيلها بأنها عملية تسابق إلى جائزة بأكثر مما هي لقاء مع اختبار مصائر وأقدار !

ولعله من اللافت للنظر أن إسرائيل تغير دورها ، فمن الضامن للإمبراطورية البريطانية في وقت « وعد بلفور » وقت الحرب العالمية الأولى ، إلى الضامن للمصالح الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، إلى الضامن لحصار حركة القومية العربية وقت الحرب الباردة - والآن فإن إسرائيل تقدم نفسها كضامن للعالم ضد « خطر الإسلام الإرهابي » - كما يدعون عليه . وكان وزير خارجية إسرائيل يشارك أخيراً في اجتماع المجلس الأوروبي في إسبانيا أواخر سبتمبر الماضي ، وكان أهم مقالته في جلسة مغلقة أن الغرب عليه أن يقف وراء إسرائيل باعتبارها الحاجز للإسلام والواقي لأوروبا ضد رحفله وعدوانه !

٨ - إن السياسة العربية أضاعت منذ سنة ١٩٧٤ وحتى سنة ١٩٩٤ - كل الفرص التي أتاها لها تضحيات عزيزة وغالية لكي تصنع سلام الشجعان ، ثم هرولت بعد ضياع الفرص إلى قبول شروط الأمر الواقع وطغيانه . وقد رضخت تحت ضغوط ثقيلة وعنيفة إلى التفاوض بغير شروط مسبقة ، وكان معنى ذلك

أنه القبول بشرط القوة ولا شيء غيره ، وكان التبرير أنه لم يكن هناك بدليل . وحين يصل القرار السياسي - أي قرار سياسي - إلى الإقرار بأنه لا يملك بدائل غير ما هو معروض - أو مفروض - عليه ، إذن فإن العمل السياسي يفقد أهليته وشرعنته . فمعيار قيمة القرار أنه اختيار بين بدائل ، فإذا لم يعد هناك غير بدليل واحد فلا مفر من التسليم بأنه « سلام الإذعان » وليس « سلام الشجعان » .

٩ - إن هناك خريطة سياسية واقتصادية تُرسم من جديد للمنطقة ، وأظنها أهم وأخطر من خريطة « سايكس بيكو » القديمة . فتلك الخريطة القديمة كانت عملية توزيع إرث الإمبراطورية العثمانية ، لكن الخريطة الجديدة تحاول أن تكون شهادة ميلاد ، وليس مجرد إعلام إرث ، لرجل مريض مات .

إن سنن الحياة طبيعة أشياء ، وتقلب العصور منطق أشياء ، لكن الإرادة الإنسانية تظل لها القدرة - إذا تساحت بجسارة الفكر والفعل - على تطوير السنن والعصور وتعظيم الفائدة من متغيراتها . ولا يتأتى ذلك بالرضوخ الذي يهنى نفسه بالواقعية ، ولا بالعناد الذي يعزى نفسه بالتزاماته المبدئية .

وما يجب أن نتحسب له هو أن الأمة تساق سوقا إلى طرق تجهلها ، والغريب أنها تتشى في هذه الطرق بهمة وكأنها تحاول استباق الزمن . وربما أحيلكم إلى ما يجرى في الدار البيضاء اليوم حيث ينعقد اجتماع أشك في أن بين العرب من يعرف مافيته الكافية عن مطالبه ومقداره ، رغم أن الكل يهرول بأقصى سرعة حاملاً ملفات تضخمت بالأوراق في اللحظة الأخيرة !

١٠ - وهناك اختراق خارجي للعالم العربي لا أظن أن له سابقة في حجمه طوال التاريخ العربي ، وهو اختراق من كل الاتجاهات من داخل كل دولة وأخرى في الداخل العربي ، ومن دول كثيرة وعديدة من الخارج . وهذا الاختراق

متعدد في أشكاله وألوانه، فهو اختراق مالي ، واقتصادي ، وسياسي ، وأمني ، وإعلامي ، وثقافي .

وفيما يتعلق بهذا النوع الأخير من الاختراق ، وهو الاختراق الثقافي فإنه من المحزن أن نلاحظ أن زمام المبادرة الإعلامية والثقافية في العالم العربي انتقل من أكثر المراكز استنارة وتقدما إلى أكثرها تخلفا ، بالذات في مجال حرية تداول المعلومات وأهلية الريادة الثقافية .

١١ - وقيادات العالم العربي تقع في محظور أنها تمارس السياسة دون أن تقرأ التاريخ ومن ذلك مثلا ذلك المشروع الذي اتفقت إسرائيل والأردن - برعاية الرئيس «كلييتون » - على دراسته والإعداد لتنفيذها ، وهو شق قناة بين خليج العقبة والبحر الميت . إن أحدا لم يتذكر أن هذا المشروع مطروح من قبل « وعد بلفور» ، وأن له تكميلة أخرى لا تحتاج إلى اتفاق بين الأردن وإسرائيل ، وهي معبر مائي من خليج العقبة إلى البحر الأبيض . وكان هذا المشروع ضمن المغريات التي قدمها « وايزمان » للحكومة البريطانية في تزيين إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . كانت حجته « إنكم تريدون مصر لقناة السويس ، وفي وسعنا أن نعطيكم قناة بديلة لا تحمل أثقال متابعيكم مع مصر » . والمشروع البديل بدأت خرائطه ورسومه تحت رعاية « كلييتون » .
قناة من خليج العقبة تجتاز وادى عربة إلى شهاله ، وفي منتصف الطريق محطة نووية تقوم بتحلية الماء وضخه في أنابيب تتفرع في كل الاتجاه ، لكن القناة تستمر بعد ذلك إلى البحر الميت لتعيد منسوبه إلى ارتفاع ٢٠٧ أمتر وتستغل مساقط المياه فيه . غير ذلك فإن هذه القناة الملاحة يكون لها فرع واصل إلى بقعة ما على البحر الأبيض ، والراجح أنها أسدود .

١٢ - والعالم العربي يعيش حالة تعطيم في المعلومات يصعب قبولها في عصر قنوات

الفضاء . ومن المفارقات أن هذه القنوات تعرض عليه كثيراً عما يجري في الدنيا ، لكن أحداً لا يعطيه شيئاً عما يجري على أرضه ، وأغلبه مخفى وأقله ظاهر. بل إنه من المفارقات أن أحداً لا يعرف بالضبط حقيقة التأثيرات على عملية صنع القرار العربي ، ولا من الذي يؤثر . وربما زعمت أن معظم الرجال الأقوياء في العالم العربي ليسوا من الظاهرين على المسرح ولا من تنشر الصحف صورهم .

وذلك غموض يثير القلق ويوقظ الشك !

١٣ - إن العالم العربي أصبح على نحو ما ميداناً من ميادين العنف إلى درجة القتل على طريقة أمريكا اللاتينية . ومن الصحيح أن هناك جماعات تمارس العنف إلى درجة القتل خروجاً على القانون ، ولكن الدولة لا تملك أن ترد بنفس الأسلوب .

وعندما نسمع في الجزائر مثلاً بيانات تتحدث عن قتل أعداد من المشتبه في أنهم «متطرفون إسلاميون» ، فإنه يحق لنا أن نفرج لأن الدولة هي حافظة القانون والقائمة على تطبيقه ، وهذا أن تتحقق وأن تتم وأن تعاقب حتى بالإعدام .. ولكن ليس بالقتل في الشوارع وبغير إجراءات أو ضمانات .

ولقد أنهى من ذلك إلى أن القرن الواحد والعشرين فيما نستطيع أن نرى منه سوف يكون أشبه بشركة مساهمة مجلس ضمن مجلس إدارتها من أسهموا في رأسها ، وأما العاطلون عن المساهمة ، أو الطالبون لوظيفة ، أو السائلون لمساعدة ، فمن الصعب أن نراهم في مقاعد مجلس الإدارة .

وسيؤل المحوري هو : ما الذي يستطيع العرب أن يشاركونه في رأس المال الشراكة العالمية في القرن الواحد والعشرين .

وهنا أصل إلى مصر . ولن أطيل في الحديث ، وإنما سوف أترك لكم أنتم أن تجيبوا على هذا السؤال لأسباب عديدة :

أولها : أن لدى هواجس لا أريد أن أثقل عليكم بها ، بينما أنا أرى مستقبل التنمية والتجارة في المنطقة على شكل أقاليم متكاملة أو شبه متكاملة ، وقد كانت لدينا في وقت من الأوقات فرصة تنمية وسوق عربية مشتركة ، لكنها ضاعت لأسباب كثيرة . ومن الصعب تصور سوق شرق أوسطية واسعة تتحقق في الغد القريب ما لم يتحقق في الأمس القريب . لكن القطر الواحد محصور ، والبدليل ما بين المجال الواسع للمنطقة والمجال المحصور لبلد واحد هو الأقاليم التي يمكن أن تتشابك وتتوهله نفسها للاتساع عندما تهيأ ظروفها . وأستطيع أن أرى في المستقبل المرئيإقليم تنمية وتجارة إسرائيليا ، يضم إسرائيل والأردن والأجزاء المتبقية من فلسطين ، وربما سوريا ولبنان في وقت من الأوقات ، وأظن أن هذا الإقليم سوف يمد أصحابه وأيديه في الجاه الخليجي . وأستطيع أن أرى إقليم تنمية صغيرة وتجارة كبيرة - خليجيا يفضل أن يتوجه إلى أمريكا وأوروبا . وأستطيع أن أرى إقليم تنمية وتجارة مغاربيا يربط نفسه بشكل أو آخر مع السوق الأوروبية . وأستطيع أن أرى إقليم تنمية وتجارة افريقيا يشد السودان إلى مجموعة أو أخرى في شرق افريقيا . وخشيت أن مصر سوف تجد نفسها وحيدة وسط هذه الأقاليم ، كما أنا لست وأثق أنه سوف يكون من حق مصر وقتها أن تلوم أحدا .

وأكبر هواجسي أن أقاليم التنمية والتجارة سوف تعطى نفسها قوة تأثير سياسي . ومع تفوق القوة الإسرائيلية ، ومع التناحر إلى حد العداء بين العرب إلى جانب ضعفهم ، فإن ذلك قد يفتح الباب لقوة التأثير الإسرائيلي تمارس دور ضابط التفاعلات والحكم في العلاقات . وبعض ذلك بدأ بالفعل ، فإسرائيل تتوسط لأطراف عربية لدى واشنطن ، وهي تمهد لأطراف عربية أخرى في علاقاتها مع الإعلام الدولي ، وهي تقوم الآن

بتمرير معلومات ، وقد تتحول المعلومات إلى نصائح . ولا أتجاوز إذا قلت إن المخابرات الإسرائيلية تقوم بإعادة تنظيم مخابرات دولتين عربيتين على الأقل ، كما أن دولة عربية واحدة - حتى الآن - تطلب خبرة عسكرية إسرائيلية !

لدى هاجس أخرى لا أريد أن أبعده عنها ، وإن ذكرت منها تخوف من كل ما يجري في الجنوب على ضفاف النيل وحولها ، وذلك بالنسبة لناإقليم صالح وروابط استيقظت فيه الفتنة وظهر الشر .

ثانيها : إن لدى اعتقادا بأنكم أعرف وأخبر مني بحجم رأس المال الذي تستطيع مصر في ظروفها الراهنة أن تقدمه لشراكة القرن الواحد والعشرين . ومع ذلك دعوني أقول بصراحة إنني لا أعتقد أن نصائح الصندوق والبنك وشروط الجات كلها كافية لتكوين رأس المال المطلوب . كذلك لا يكفي ذلك الضياع في ختان البنات ، والعلاج بالجن ، وغرس خنجر في رقبة «نجيب محفوظ » لأنه قال كلمة تقتضيها مكانته المتميزة ، وإطلاق الرصاص على واحد من المتهمين بهذا الفعل دون أن تسمع منه كلمة يقتضيها حكم القانون الذي لا يعرف التمييز ، وغير ذلك وغيره مما يأخذنا ويشغلنا هذه الأيام . تلك كلها ليست مجالات لتفكير أو إرادة تدخل بتواضع القادرين إلى مقعد في مجلس إدارة العالم في القرن الواحد والعشرين .

ثالثها : وربما أهتم ، أنكم تستطعون أكثر مني تطبيق مطالب علم الإدارة على أحوالنا في مصر . ولقد بدأنا هذا الحديث بعرض هذه المطالب ، وفعلاً ذلك لن يجعل من هذه المطالب مرجعية نعود إليها ونقيس عليها . ولنا الآن - وعلى ضوء ما هو جار في العالم وحاصل في الإقليم الذي نعيش فيه - أن نتساءل :

- هل لدينا الهدف الواضح والمحدد ؟
- هل يملك هدفنا الواضح والمحدد إمكانية واقعة أو مضمونة تسمح بتحقيقه ؟
- هل توفر هذا الهدف الواضح والمحدد والممكن مشروعية القبول من أصحابه ومن العصر ؟
- هل تعطى الحياة السياسية هدفها أصلح وأنضج العناصر ؟
- هل تعطى الحياة السياسية لقوى الشعب المصري حقه في الرقابة على إدارة العملية السياسية بمجملها ؟

قلت لكم ومازالت أقول إنكم أعرف وأخبر مني بحجم رأس المال المطلوب للشراكة مع العالم ، ثم إنكم أعرف وأخبر مني بمطالب الإدارة اللازمة لرأس المال الوطني الداخل في الشراكة العالمية للعصر الجديد .

بقى أن أقول - مشجعا وليس معتقدا - إن الصورة التي رسمتها في جولة واسعة على عرض الأفق أمامكم ليست سلبية كما قد يبدو لأول وهلة ، ذلك أنه عن طريق تشخيص المشاكل يمكن التوصل إلى العلاج . فالتشخيص هو طرح السؤال ، والجواب هو تحديد الدواء الذي يحصل به الشفاء .

وقد أجازف وأقول إن هناك أسبابا للتفاؤل بالشفاء - حقيقة وعلى أساس :

أولا : أن هناك عملية حراك اجتماعي ظاهرة في مصر ، وهي نتاج طبيعي لفترات طويلة من التنمية الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية ، ورغم أنها كانت فترات قوطة بآزمات من الحيرة والشك - فإن آثار فترات التنمية موجودة وفعالة . ومع أن الظاهرة الغالبة على عملية الحراك الاجتماعي الآن في مصر هي الظاهرة المالية غير المرتبطة بوسائل الإنتاج ، إلا أن قوة الأشياء قد تحول ذلك إلى ظاهرة اقتصادية - أكثر منها مالية - تنموا بها وتتسع معها طبقة متوسطة عريضة تستطيع أن تعطى للمجتمع المصري نوعا من التوازن المطلوب يرسى قيمة العمل فوق نشوء المغامرة . وإذا

استطاعت هذه الطبقة أن تتحقق ذاتها فإن دورها في العملية السياسية سوف يكون أكيداً ومحقاً ، وربما أنها تستطيع أن تشارك بنجاح في إرساء قواعد تستند إليها آلية التغيير المأمون في أزمنة مضطربة .

وثانيها : أن هناك رصيداً هائلاً من الكفاءات والخبرات المصرية ما زال على أرض وطنه ، كما أن أجزاء منه منتشرة في كل أنحاء الأرض . وإذا بدا في الوطن الأم أمل فليس هناك شك في أن هذا الرصيد الإنساني الغنى بالكفاءات والخبرات قادر على أن يحمل مسؤولية نقلة حضارية تستطيع أن تجعل هذا الوطن في وضع يسمح له بأن يواكب العصر والعالم والقرن الواحد والعشرين .

وثالثها : أن هناك حالة قلق تدعو قوى كثيرة إلى عدم الرضا عنها ترى ، وتحفرها إلى أن تفتش في كل النواحي عن خيارات بديلة تؤمن إلى مستقبل أفضل ، ومع أن حالة القلق والتفتيش عن بديل تعبّر عن نفسها الآن بطرق قد لا تكون مقبولة أو مرضية - إلا أن الحقيقة تتبدى جلية ، وهي أن مصر غير راضية ، ثم إنها ليست مستسلمة لحالة من اليأس والقعود . وظني - وربما أمل - أن وسائل العصر ، مضافة إلى شحنة القلق ، مضافة إلى حراك اجتماعي نشيط ، مضافة إلى رصيد إنساني غنى - قادرة كلها في مستقبل غير بعيد على أن تحول إلى طاقة إيجابية تصارع اليأس بالأمل ، ولا تصفع الأمل باليأس .

وأشعر أنني استنفذت وقتى أمامكم وزيادة . وإنذ آخذ منكم الإذن ، شاكراً ومتعرفاً بالفضل وجميل الصبر وسعة الصدر .

رقم الإيداع ٩٤/١٠١١١
I.S.B.N 977 - 09 - 0243 - 8

مطالع الشروق

القاهرة: ٦٦ شارع جراد حسني - مكتب ٣٩٣٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤
لبنان: بيروت - صن ب: ٨٠٦٤ - مكتب ٣١٥٨٥٩ - ٣١٧٧٦٣٥ - ٣١٧٢١٣



مصر والقرن الواحد والعشرون

إن هناك حالة قلق تدعى قوى كثيرة إلى عدم الرضا عنها ترى ، وتحفزها إلى أن تفتش في كل التواحي عن خيارات بدائلة تؤمن إلى مستقبل أفضل ، ومع أن حالة القلق والتقتش عن بدليل تعب عن نفسها الآن بطرق قد لا تكون مقبولة أو مرضية - إلا أن الحقيقة تبدي جلية ، وهي أن مصر غير راضية ، ثم إنها ليست مستسلمة حالة من اليأس والقعود . وطني - وربما أمل - أن وسائل العصر ، مضافة إلى شحنة القلق ، مضافة إلى حراك اجتماعي نشيط ، مضافة إلى رصيد إنساني عنى - قادر على كلهـا في مستقبل غير بعيد على أن تتحول إلى طاقة إيجابية تصارع اليأس بالأمل ، ولا تصرع الأمل باليأس .

محمد سعيد هشكوك

To: www.al-mostafa.com